عقيدة (نبوات)

إعداد

د. زينب محمد بدوى
كلية الآداب
قسم الدراسات الإسلامية

العام الجامعي

٢٠٢١ -٢٠٢٢م

بيانات الكتاب

الكلية:

الفرقة:

التخصص:

تاريخ النشر:

عدد الصفحات:

المؤلفون

الرموز المستخدمة

تمهيد

الحَمدُ للهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، وَأَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، وَبَعدُ:

فإن من عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بالرسل عليهم السلام، وهو ركن من أركان الإيمان الستة، والرسل هم الذين أوحى الله إليهم بالشرائع وأمرهم بتبليغها، قَالَ تَعَالَى :﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨). فمن قصه الله علينا وعرفناه آمنا به بعينه، ومن لم يُقصص علينا ولم نعرفه نؤمن به إجمالًا. قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ (النساء: ١٦٤).

ولإلقاء الضوء والتوضيح للنبوات فقد انتظمت الدراسة كالتالى :

المبحث الأول : معنى النبوة والرسالة.

المبحث الثانى : حَاجة البشريّة إلى الرّسُل والرّسَالات.

المبحث الثالث : الصفات الواجب توافرها في الرسل.

المبحث الرابع : طريق إعلام الله أنبياءه ورسله.

المبحث الخامس :وجوب الإيمان بعموم رسالته صلى الله عليه وسلم.

المبحث السادس : الفرق بين المعجزة والكرامة.

المبحث السابع: أخلاَق الداعي

المبحث الثامن: المَدْعُو

المبحث التاسع: مَصادر أساليب الدّعوة ووَسائِلها ومدى الحاجة إليها

المبحث الأول

معنى النبوة والرسالة

جمع الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بين النبوة والرسالة قال تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)[1]

أ- معنى النبي لغة وشرعًا:

النبوة في اللغة العربية مشتقة إما من (النبأ) أو (النباوة) أو (النبوة) أو (النبي)[2].

١- فإذا كانت مأخوذة من (النبأ) فتكون بمعنى الإخبار، لأن النبأ هو الخبر.

٢- وإذا كانت مأخوذة من (النباوة أو النبوة) فتكون بمعنى الرفعة والعلو، لأن (النباوة أو النبوة: هي الشيء المرتفع).

٣- أما إذا كانت مأخوذة من (النبي) بدون همز، فيكون معناها الطريق إلى الله عز وجل لأن معنى "النبي" الطريق.

---

(١)الآية (٤٠) من سورة الأحزاب.

(٢)انظر: لسان العرب مادة "نبأ" (١/١٦٢- ١٦٣)، ومعجم مقاييس اللغة (٥/ ٣٨٤، ٣٨٥).

ولو نظرنا إلى النبوة الشرعية لوجدنا أنها تشمل كل هذه المعاني إذ النبوة إخبار عن الله عز وجل، وهي رفعة لصاحبها لما فيها من التشريف والتكريم، وهى الطريق الموصلة إلى الله سبحانه.

أما النبوة في اصطلاح الشرع: " فهي خبر خاص يكرم الله عز وجل به أحدا من عباده فيميزه عن غيره بإيحائه إليه ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد ووعد ووعيد"[١].

أما النبي فقد اختلف العلماء في تعريفه:

– فمنهم من قال: هو الذي أوحى الله إليه بشرع ليعمل به ولم يؤمر بتبليغه. [٢]

– منهم من قال: هو الذي أوحى الله إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله[٣].

– ومنهم من قال: هو الذي أوحى الله إليه وأخبره بأمره ونهيه وخبره، ويعمل بشريعة رسول قبله بين قوم مؤمنين[٤].

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي، الباب الثاني من شعب الإيمان (ص ٢٧٥) .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٦٧).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٥/ ٧٣٥).

(٤) كتاب النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٢٥٥).

وهذا هو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية ولعله هو أرجح الأقوال وأسلمها من الاعتراض فقد اعترض على القول الأول بأنه غير صحيح؛لأن قوله تعالى:"**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ**"[1]يدل على أن كلا منهما مرسل وأنهما مع ذلك بينهما تغاير[2].

وكذلك مما يؤكد كون الأنبياء مأمورين بتبليغ قومهم ما أوحي إليهم والحكم بينهم بذلك ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال:«**إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ إِذَا مَاتَ نَبِيٌّ قَامَ نَبِيٌّ مَكَانَهُ،وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**» الحديث[3] كلّما مات نبي قام نبي .

وقد اعترض على القول الثاني بأن الضابط الذي ذكروه لا يستقيم فيوسف عليه السلام كان رسولا وكان على شريعة إبراهيم،قال تعالى:"**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً**" [4].

---

(١) الآية (٥٢) من سورة الحج.

(٢) أضواء البيان (٥/ ٧٣٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء: باب ما ذكر عن بني إسرائيل. انظر: فتح الباري (٦/ ٤٩٥) ح ٣٤٥٥. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة: باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء (٦/ ١٧).

(٤)الآية (٣٤) من سورة غافر.

وكذلك داود وسليمان عليهما السلام كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة قال تعالى:"**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً، وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً**"(١).

معنى الرسول لغةً وشرعًا:

الرسول لغة: إما مأخوذ من الرَسل.

الرَّاءُ وَالسِّينُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُطَّرِدٌ ، يَدُلُّ عَلَى الِانْبِعَاثِ وَالِامْتِدَادِ. فَالرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ. وَنَاقَةٌ رَسْلَةٌ: لَيِّنَةُ الْمَفَاصِلِ. وَشَعْرٌ رَسْلٌ، إِذَا كَانَ مُسْتَرْسِلًا. وَالرَّسْلُ: مَا أُرْسِلَ مِنَ الْغَنَمِ إِلَى الرَّعْيِ.

وَالرِّسْلُ: اللَّبَنُ؛ وَقِيَاسُهُ مَا ذَكَرْنَاهُ، لِأَنَّهُ يَتَرَسَّلُ مِنَ الضَّرْعِ.

(١)الآيتان (١٦٣– ١٦٤) من سورة النساء.

وَتَقُولُ جَاءَ الْقَوْمُ أَرْسَالًا: يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ مَأْخُوذٌ مِنْ هَذَا؛ الْوَاحِدُ رَسَلٌ. وَالرَّسُولُ مَعْرُوفٌ. وَإِبِلٌ مَرَاسِيلُ، أَيْ سِرَاعٌ. وَالْمَرْأَةُ الْمُرَاسِلُ الَّتِي مَاتَ بَعْلُهَا فَالْخُطَّابُ يُرَاسِلُونَهَا. وَتَقُولُ: عَلَى رِسْلِكَ، أَيْ عَلَى هِينَتِكَ؛ (١).

وَالرِّسْلُ: الرَّخَاءُ. يَقُولُ: يُنِيلُ مِنْهَا فِي رَخَائِهِ وَشِدَّتِهِ. وَاسْتَرْسَلْتُ إِلَى الشَّيْءِ، إِذَا انْبَعَثَتْ نَفْسُكَ إِلَيْهِ وَأَنِسْتَ. وَالْمُرْسَلَاتُ: الرِّيَاحُ.

وقيل سمى الرَّسُول رَسُولا من التَّتَابُع لتتابع الْوَحْي ورسالة الله إِلَيْهِ. ومعنى الرسول على هذا الاشتقاق: هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه(٢).

ولو نظرنا إلى كلا الاشتقاقين فإنا نجد أن لفظ الرسول في اصطلاح الشرع يدل عليهما فالرسول مبعوث من قبل الله، وهو كذلك يتابع أخبار الوحي المنزل إليه من الله تعالى.ولفظ الرسول تارة يقال للقول المُتَحَمَّل كقول الشاعر:ألا بلِّغ أبا حفص رسولا ،وتارة لمُتَحَمِّل القول والرسالة(٣).

<u>والرسول في الشرع: عرف بعدة تعريفات:</u>

<u>عرف بثلاثة تعريفات:</u>

---

(١) المفردات في غريب القرآن تأليف أبي القاسم حسين محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ص ١٩٥) مادة "رسل".،ينظر:مقاييس اللغة :ابن فارس ج٢ ص٣٩٢

(٢)المصدر السابق (ص ١٩٥) ولسان العرب مادة "رسل" (١١/ ٢٨٤).

(٣)٢ المصدر السابق (ص ١٩٥) ولسان العرب مادة "رسل" (١١/ ٢٨٤).

الأول:هو الذي أوحى الله إليه بخبر وأمره بتبليغه للناس،وهؤلاء فرقوا بينه وبين النبي بأن النبي أوحي إليه بخبر ولم يؤمر بتبليغه[1].

الثاني:ومنهم من عرفه بقوله:هو الذي أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي تثبت بها نبوته.

وقالوا:إن النبي هو الذي لم ينزل إليه كتاب وإنما أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة من كان قبله من الرسل[2].

الثالث:ومنهم من قال: إن الرسول هو الذي ينبئه الله ثم يأمره أن يبلغ رسالته إلى من خالف أمره أي إلى قوم كافرين.

أما النبي فهو من أوحى الله إليه وأخبره بأمره ونهيه وخبره، ويعمل بشريعة رسول قبله بين قوم مؤمنين بهما.

وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، واستشهد لذلك بأن نوحا عليه السلام كان هو أول رسول بعث إلى أهل الأرض وكان أول شرك بالله قد وقع في قومه.

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (ص ٢٧٥- ٢٧٦) بتحقيق فلاح بن ثاني، وشرح العقيدة الطحاوية (ص ١٦٧).
(٢) أضواء البيان (٥/ ٧٣٥).

وقد كان قبل نوح أنبياء كشيث وإدريس عليهما السلام وقبلهما آدم كان نبيا مكلما، وقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام،وكان المبعوثون في هذه القرون أنبياء فقط[1].

وهذا القول الثالث هو أرجح الأقوال.

أما القول الأول فهو غير مسلم كما سبق وإن وضحت في الكلام على معنى النبي. وكذا الأمر بالنسبة للقول للثاني فليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة كما تقدم ذكر ذلك.

وقد أشار الشيخ البزدوي من الماتريدية: إلى أن الرسول لا يكون إلا نبيا والنبي قد لا يكون رسولا. . . فالرسول من أرسل الله تعالى إليه جبريل ليكون رسولا إلى قوم ليدعوهم إلى الإسلام، وليعلمهم الشرائع وله شريعة، والنبي من لم يرسل الله تعالى إليه جبريل، وليس له شريعة، ولكن الله تعالى ألهمه أن يدعو الناس إلى الإسلام، ويريه في المنام ذلك، أو أخبره على لسان رسول أنه نبي يجب عليه دعوة الناس إلى الإسلام"[2]

معنى النبوة والرسالة (أي معنى النبي والرسول)

---

(١)النبوات (ص ٢٥٥- ٢٥٦).

(٢) النبوة بين الفلاسفة والمتكلمين لمحمد نبيل طاهرص (١٨٠)

النبوة: هي اصطفاء الله تعالى إنساناً موصوفاً بالذكورة والحرية بالوحي إليه بواسطة جبريل عليه السلام.

النبي : هو إنسان ذكر حر أوحى الله إليه بواسطة جبريل عليه السلام.

الرسالة :هي تكليف الله نبياً من أنبيائه بتبليغ شريعته للناس.

الرسول: هو النبيُّ المكلَّف من قبل الله تعالى بواسطة جبريل عليه السلام بتبليغ شريعته للناس.

ج- الفرق بين النبوة والرسالة (وبين النبي والرسول)

أولاً: إن الوصف بالرسالة مغاير للوصف بالنبوّة، قال الله تعالى: "**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا**" [مريم: ٥١.]

فهذا يشعر بتغاير في مفهوميهما، وهو يشهد له عطف أحدهما على الآخر عطف تغاير. وهذا مشاهد في قوله تعالى أيضاً: "**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**" [الحج: ٥٢.]

ثانياً: إن النبوة سابقة للرسالة، فلا يتم الاصطفاء بالرسالة إلا لمن تمَّ اصطفاؤه بالنبوة.

وقوله تعالى: "**وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ**" [الزخرف: ٦] وقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا" [الأحزاب: ٤٥-٤٦] فالآيتان تدلان على أن النبوة متحققة أولاً ثم يأتي بعدها الإرسال.

فالنبي يمر في فترة الاصطفاء بالوحي قبل أن يؤمر بالتبليغ فيكون في هذه الفترة نبياً لا رسولاً. فإذا أمر بالتبليغ صار نبياً رسولاً.

وقد عاش سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– الفترتين، فترة النبوة وهي بين بدء الوحي وبين أمر الله له بالتبليغ، وفترة الرسالة التي كلف بها محمد –صلى الله عليه وسلم– بالتبليغ كانت بعد النبوة فصار نبياً ورسولاً. وهذا في قوله تعالى: "**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ**" [المدثر:١-٢]

ثالثاً: قد نجد الاصطفاء بالنبوة مقتصراً على بعض الأنبياء دون تبليغ لرسالة معينة، فهؤلاء أنبياء لا رسل. فعلى هذا تكون مهمة النبي الذي لم يؤمر بتبليغ رسالة: العمل والفتوى بشريعة رسول سابق له.

وذكر القرآن الكريم قصة نبيٍ لم يذكر في عداد الرسل، وله قصة مع بني إسرائيل من بعد موسى. قال تعالى: "**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ**

بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ" [البقرة: ٢٤٦.]

ويؤيد ذلك أيضاً الأحاديث النبوية التي تفرق بين عدد الأنبياء وعدد الرسل عليهم الصلاة والسلام.

عن أبي ذرٍ الغفاري رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال: "آدم". قلت: يا رسول الله، قُلْتُ: أَوَنَبِيٌّ كَانَ؟ قَالَ: «نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ» ، قُلْتُ: كَمْ كَانَ الْمُرْسَلُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «ثَلَاثَمِائَةٍ وَخَمْسَ عَشْرَةَ جَمًّا غَفِيرًا»[1]

المبحث الثانى

حَاجة البشريّة إلى الرّسُل والرّسَالات

لما كان الإنسان مخلوقا على وجه يقتضي – بحسب حكمة الخالق – اختبار إرادته وسلوكه في الحياة، ولا يتم اختبار إرادته وسلوكه إلا بأن يوضع في مجال الاختبار الكامل، وذلك : بتعريفه بطرق الخير وطرق الشر ثم

[1])أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم(٢١٥٤٦)حديث أبي ذر الغفاري ج٣٥ ص٤٣٢

بإرشاده إلى طرق الخير وحثه عليها، وترغيبه بالثواب إذا هو اختارها وسلك فيها، وبتنبيهه إلى طرق الشر، وتحذيره منها ، وترهيبه من العقاب إذا هو اختارها وسلك فيها، ثم بتوجيه الأوامر والنواهي له ،وتحديد طرق الحلال والحرام ولا يمكن معرفة أوامر الله ونواهيه،وطرق الحلال والحرام التي حددها، إلا من جهته تعالى.

وقد اختار الله أقرب السبل لمعرفة ذلك بأن أوحى لطائفة من البشر اصطفاهم لحمل رسالاته للناس، وكملهم بالكمال،الإنساني، وعصمهم عن المعاصي والذنوب والانحرافات في السلوك، وصانهم عن الخطأ في نقل أحكام الله وشرائعه للناس،وأيدهم بتأييد معجز من عنده ولو لم يرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، لكان للناس على الله حجة بأنه لم يرسل لهم من يبلغهم أوامر الله ونواهيه،وسائر شرائعه لخلقه، ويرغيهم بثوابه، وينذرهم بعقابه، حتى يعرفوا واجبهم نحو ربهم.[1]

([1]) العقيدة الإسلامية وأسسها ص (٣٠٤)

ومن هنا يتضح لنا حاجة الناس إلى رسل يبلغونهم شرائع الله لخلقه وممن جلى هذه المسألة وبينها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى قال:" الرسالة ضرورية للعباد، لا بدَّ لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأيُّ صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، وينالـه من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[1] ، فهذا وصف المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في الناس، وأمّا الكافر فميت القلب في الظلمات ".

وبين رحمه الله تعالى:" أن الله سمّى رسالته روحاً، والروح إذا عدم فقدت الحياة، قال الله تعالى:(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ

([1]) الأنعام (١٢٢).

مُسْتَقِيمٍ)[1]، فذكر هنا الأصلين، وهما: الروح، والنور، فالروح الحياة، والنور النور" وبين رحمه الله تعالى:" أن الله يضرب الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ونوراً لها بالماء الذي ينزله من السماء حياة للأرض، وبالنَّار التي يحصل بها النور.

وهذا كما في قوله تعالى:(**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ**)[2].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله معقباً على الآية:" فشبه العلم بالماء المنزل من السماء لأن به حياة القلوب، كما أنَّ بالماء حياة الأبدان، وشبّه القلوب بالأودية، لأنّها محلّ العلم، كما أنَّ الأودية محل الماء، فقلب يسع علماً كثيراً، وواد يسع ماءً كثيراً، وقلب يسع علماً قليلاً، وواد يسع ماءً قليلاً، وأخبر تعالى أنَّه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء، وأنّه يذهب جفاءً،

([1])الشورى(٥٢).

([2])الرعد (١٧).

أي: يرمى به، ويخفى، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر، وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات، ثم تذهب جفاءً، ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس، وقال:(وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ)[1]. فهذا المثل الآخر وهو الناري، فالأول للحياة، والثاني للضياء.

وبين رحمه الله أن لهذين المثالين نظيراً " وهما المثالان المذكوران في سورة البقرة في قوله تعالى: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ)[2].

وبعد أن بيَّن الشيخ رحمه الله وصف المؤمن، بين وصف الكافر، فقال:"وأمّا الكافر ففي ظلمات الكفر والشرك غير حيّ، وإن كانت حياته حياة بهيمية، فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها الإيمان، وبها حصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، فإنّ الله – سبحانه – جعل الرسل

([1])الرعد (١٧).

([2]) البقرة (١٧-١٩).

وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه ".

ثم بيّن رحمه الله هذه الأصول التي أشار إليها هنا فقال: " **فالأصل الأول:** يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصّها الله على عباده والأمثال التي ضربها لهم.

والأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه.

والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنّة والنار والثواب والعقاب ".[1]

ثم بيّن أنَّ "على هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلاّ من جهة الرسل، فإنَّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة

([1]) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٩٤/١٩.

إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض، وتنزيل الدواء عليه"[1].

وتتلخص حاجة الناس إلى الرسل بما يلي :

١- لو ترك الناس لأنفسهم من غير تنبيه وإرشاد لظلوا في الضلالات يتيهون، وذلك بسبب اندفاعهم وراء غرائزهم وشهواتهم وأنانياتهم ، وظلوا يتخبطون بالظلمات في أوحال المفاهيم الباطلة، والأخلاق الفاسدة ، والعادات المنحرفة ، والتقاليد السيئة.

لذلك كان الناس بحاجة إلى رسل ينبهونهم ويرشدونهم ، ولذلك أرسل الله لهم الرسل بحكمته .

٢- إن الناس بحسب التقويم الذي فطرهم الله عليه ، قد خلقهم الله ليختبر إرادتهم، وليبلوهم أيهم أحسن عملا، ولولا أن أرسل الله إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، لكان لهم عذر وحجة عند ربهم يوم القيامة لدى محاسبتهم على كفرهم و مخالفاتهم بأنه لم يرسل لهم من ينبههم، ويدلهم على الله، ويبين لهم الفضائل، ويحذرهم من الرذائل، ولقالوا لربهم يوم الحساب : يا ربنا لو أرسلت

---

(1) المرجع السابق: ٩٦/١٩.

إلينا رسولا لكنا اتبعناه، ولم نخالف له أمرا، ولذلك كان الناس بحاجة إلى رسل من عند الله ، ولذلك أرسل الله لهم الرسل بحكمته .

٣- الناس لا يستطيعون بأنفسهم أن يتوصلوا إلى جميع الخيرات والفضائل الإنسانية، ويتفقوا عليها؛ لأن عوامل غرائزهم وشهواتهم وأهوائهم وأنانياتهم، تصرفهم عن الحق والخير، فتزين لهم الباطل والشر، لذلك فهم بحاجة إلى رسل من عند الله معلمين ومبشرين ومنذرين.[١]

المبحث الثالث

الصفات الواجب توافرها في الرسل

الأنبياء و الرسل أكمل الخلق على الإطلاق علما وعملا، وأكمل الخلق أخلاقا، وأنهم منزهون ومعصومون عن العيوب الخلقية من سقم وأذى، وأنهم لا يملكون شيئا من الخصائص الإلهية، فلا يتصرفون في الكون، ولا يملكون لأحد ضرا ولا نفعا، ولا يعلمون الغيب، ويمكن أن تفصل الصفات التي يجب توافرها في الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، على النحو الآتي:

أولا: العصمة:

([١]) العقيدة الإسلامية وأسسها ص (٣٠٧).

الآيات الدالة على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله عز وجل فلا يكون خبرهم إلا حقاً ،وهذا معنى النبوة وهو يتضمن أن الله ينبئه بالغيب وأنه ينبئ الناس بالغيب والرسول مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات ربه ، أما كبائر الذنوب فلا تصدر من الأنبياء أبدا وهم معصومون من الكبائر ، سواء قبل بعثتهم أم بعدها.

قال ابن تيمية – رحمه الله – إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام ، وجميع الطوائف وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء ، بل لم يُنقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول وأما صغائر الذنوب فربما تقع منهم أو من بعضهم ، ولهذا ذهب أكثر أهل العلم إلى أنهم غير معصومين منها ، وإذا وقعت منهم فإنهم لا يُقرون عليها بل ينبههم الله تبارك وتعالى عليها فيبادرون بالتوبة منها.

ثانيا: الفطانة

وهي لغة: من فطن لأمر – فطنه أي تبينه وعلمه، وفطن للأمر أي تنبه له. وتعد قوة استعداد الذهن لإدراك ما يرد عليه[1] ولم يبعث نبي إلا وكان على جانب عظيم من الذكاء والنباهة مع كمال العقل والرشد[2]. لقوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)[3].

فبالفطانة يستطيع النبي أو الرسول أن يعرف ما يلقى إليه من الوحي، وبها يستطيع أن يحفظه ولا ينساه، وبها يستطيع أن يبلغه كما أوحى به إليه، وبها يستطيع بعد ذلك أن يعالج أمته بالتربية الحكيمة، والقيادة السليمة، وفق طبائعهم وأخلاقهم، وبها يستطيع أن يحاجج ويجادل الخصوم. ومن هنا تتضح أهمية هذه الصفة وضرورة توافرها عند الأنبياء. لأن عدم وجودها يتنافى مع الحكمة من إرساله، ذلك لأنهم يرسلون إلى الكفار من الناس، ليحاججوهم ويقنعوهم بأهمية ما يوحي به إليهم.

---

(1) المعجم الوسيط ص (٦٩٥).

(2) النبوة والأنبياء لمحمد الصابونى ص (٤٨).

(3) سورة الأنبياء الآية (٥١).

والأدلة التي تشهد لفطانة الرسل عليهم السلام في القرآن الكريم كثيرة كقوله تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)[1].

فإن إبراهيم عليه السلام قد جادل النمرود الطاغية الذي ادعى الألوهية، فحاجه وبهته حيث إن إبراهيم عليه السلام قال للنمرود عندما سأله من ربك ؟ فأجابه: ربي الذي يحيي ويميت، فقال النمرود: أنا أحيي وأميت ؟ فأتي برجلين قد حكم عليهما بالإعدام، فأمر بعدم قتل أحدهما مع الحكم بإعدامه، فبزعمه أنه أحياه، وأمر بقتل الثاني فبزعمه أنه أماته، فتنبه سيدنا إبراهيم عليه السلام للأمر وبدأ بإبطال ما ادعاه النمرود، وبكل حكمه وفطنة عظيمتين، ونقله إلى مظهر آخر من مظاهر أفعال الله سبحانه وتعالى فقال له: إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب؟! عندئذ بهت النمرود ولم يجد جوابا، فسقط بذلك ادعاؤه الربوبية، لهذا قال الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي

([1])الأنعام (٨٣).

وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[1].

وثبت له موقف آخر عندما حطم الأصنام، وكان آنذاك فتى صغيرا، عندما علق القدوم على عنق أكبر الأصنام حجما ليقيم الحجة على قومه... فحين علموا أنه هو الفاعل قدموه للمحكمة وسألوه: من الذي حطم آلهتنا، وأقدم على تكسير الأصنام؟ هل أنت فعلت ذلك يا إبراهيم؟ فأجابهم عليه السلام: إنني لم أحطمها ولكن الصنم الكبير والإله العظيم بزعمهم – هو الذي حطمها لأنه لم يرض أن تعبد معه، والدليل على ذلك أنه وضع القدوم في عنقه، وإذا لم تصدقوا كلامي فاسألوهم عن ذلك الأمر وسلوه

وفي هذه الرحلة كان قد بلغ إبراهيم إلى غايته وهدفه، فأقام عليهم الحجة بعد أن سفه عقولهم، وجعلهم يضحكون من أنفسهم ...

وهكذا يكون منطق الأنبياء وذكائهم وفطنتهم، فقال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ* قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ* قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ* قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ

([1]) البقرة (٢٥٨).

رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ)[1].

ومما يدل على فطنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا).[2]

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على كمال الذكاء والفطنة اللتين يتصف بهما النبي صلى الله عليه وسلم – وكذلك تحريك لسانه صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم لحفظه وخشية ذهابه، وهذا من حدة الفطنة والذكاء، لقوله تعالى:(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ*إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ)[3] ولذلك شهد الله له بأنه لا ينسى، وهذا دليل على قدرة الذكاء فقال تعالى: (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى)[4] وأن الله سبحانه وتعالى أمر نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم بمجادلة خصومه بالتي هي أحسن، والمجادل عليه أن يتميز بنباهة زائدة وفطانة عالية حتى يوصل خصومه إلى طريق الحق ويعرفهم به، وهذا دليل

([1]) الأنبياء (٥١-٥٧).

([2]) طه (١١٤).

([3]) القيامة (١٦)(١٧).

([4]) الأعلى (٦).

على فطانته وذكائه صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)[1] فالأنبياء لو لم تجب في حقهم هذه الصفة لكانوا عاجزين عن الدعوة إلى الله وإلى دينه، ولما استطاعوا أن يدحضوا أباطيل خصومهم، وإقامة الحجة عليهم، فتصبح رسالتهم عيبا عليهم وتضيع فائدتها. فالأنبياء متصفون بالذكاء والفطانة، والله يختار المنصب النبوة الذكي الفطن ، ولا يختار لها من اتصف بالغباوة والبلادة وضعف التفكير.

ثالثا: الصدق:

الصدق لغة مطابقة الحكم للواقع، وفي اصطلاح أهل الحقيقة: قول الحق في مواطن الهلاك، وقيل: أن تصدق في موضع لا ينجيك منه إلا الكذب، وقيل: الصدق هو ضد الكذب، وهو الإبانة عما يخبر به على ما كان.

والصدق صفة ملازمة للأنبياء عليهم السلام، فهي من الصفات الفطرية فيهم، ومن هنا يتضح أنه من الواجب أن يتصف جميع الأنبياء بهذه الصفة

([1]) النحل (١٢٥).

في كل ما يبلغون عن الله، ولا يقع منهم الكذب في شيء من حياتهم العامة أو الخاصة ليكونوا قدوة للناس، وبالتالي فإن الكذب محال عليهم، فلا يمكن للنبي أن يصدر منه صفة قبيحة، أو ما يخل بالمروءة كالكذب وأكل أموال الناس بالباطل، أو الخيانة، أو سرقة القمة، لأن هذه الصفات لا تليق برجل عادي، فكيف بنبي مقرب أو رسول مكرم؟!

ولو عرف أحد الرسل بين الناس بالكذب، لم يسلموا له بدعوى الرسالة، ورفضوا الالتفات إليه ابتداء لما يعلمون من كذبه، وذلك إخلال بمهمة الرسالة ونقض لها، وعثرات في طريق المهتدين إلى الصراط المستقيم. ولهذا يؤيد الله تعالى رسله بالمعجزة التي لا يعارضها أحد وهي دليل على صدقهم، فلو كان أحدهم كاذبا ما أجرى على يديه المعجزة، زيادة على أنه لا يبعثه أصلا، ولأن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، لقوله تعالى:(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)[1]. فإنه لا يجعلها في كذاب مفتر وحاشى لله.

وقد أشار سيدنا موسى عليه السلام في دعوة فرعون إلى أن شاهد المعجزة دليل ص دقه في النقل عن ربه، ولو كان كاذبا لم يجر الله على يديه المعجزة، لقوله تعالى: (وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ

(1) الأنعام (١٢٤).

الْعَالَمِينَ *حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)[1]، أى: لما دخل على فرعون ومن معه أخوه هارون بعثهما الله إليه بالرسالة قال (يا فرعون إنى رسول) أى إليك (من رب العالمين) ادعوك إلى عبادة رب العالمين وأنهاك عن دعوى الربوبية فقال له فرعون كذبت ما أنت برسول فقال موسى:(حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ) أى: حريص على ألا أقول على الله إلا الحق[2].

وقد ثبت صدق رسولنا صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)[3]، وهذا دليل على أن الله تبارك وتعالى لا يمكن أن يقر رسله على الكذب؛ لأنهم أصدق الخلق بدليل أنهم حملوا رسالة رب العالمين إلى البشر.

ويقول الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: أي: محمد صلى الله عليه وسلم لو كان كما يزعمون مفتريا علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك، لعاجلناه بالعقوبة. ولهذا قال (

---

(1) الأعراف (١٠٤-١٠٥).

(2) انظر: تفسير ابن كثير ٤٥٤/٣.

(3) الحاقة (٤٤-٤٧).

لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) قيل: معناه لانتقمنا منه باليمين؛ لأنها أشد في البطش،(ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) قال ابن عباس: وهو نياط القلب، وهو العِرْقُ الذي القلب معلق فيه، وقوله:(فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) أي: فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئا من ذلك. والمعنى في هذا بل هو صادق بار راشد؛ لأن الله، عز وجل، مقرر له ما يبلغه عنه، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات[1].

وقد شهد القرآن الكريم بصدق النبى – صلى الله عليه وسلم – وأن ما جاء به وحى من الله وهو الحق يقول الله تعالى :(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)(٢) ، وقوله تعالى :(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)[3].

وهذا يبين للعرب وللبشرية قاطبة بأنه صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين، كيف لا وقد شهد له الأعداء قبل الأصدقاء بالأمانة والصدق، سأل هرقل ملك الروم، أبا سفيان بن حرب قبل إسلامه– عن أمر محمد صلى الله

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢١٨/٨.

(٢) النجم (٣-٤).

(٣) النساء (١٧٠).

عليه وسلم، هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبوسفيان: ما عرفنا عليه كذبا قط ! فقال هرقل بعد ذلك قولته المشهورة: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله"[1].

وقد اشتهر الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة بأنه الصادق الأمين، وكان المشركون يسمونه بذلك، هذا أحد سادات قريش يلتقي بأبي الحكم عمرو بن هشام ، في إحدى طرقات مكة، فيسأله قائلا: يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك، أشهدك الله هل محمد صادق أمين أم كاذب ؟ فأجابه عمرو بن هشام بكل صراحة: والله أن محمدا صادق، وما كذب يوما قط... قال فما الذي يمنعكم من إتباعه ؟ فقال له أبو جهل: تنافسنا نحن وبنو هاشم، وتنازعنا الزعامة والفخر، وأطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، وأجاروا فأجرنا، حتى كنا كفرسي رهان، أي استوينا وإياهم في السبق والفخر – ثم زادوا علينا فقالوا بعث منا نبي فمن أين نأتيهم بنبي ؟ والله لا نؤمن به ولا نتبعه، وفي هذا أنزل الله جل ثناؤه تسلية لنبيه قوله تعالى:(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)[2].فهذا هو عدو

([1]) النبوة والأنبياء للصابونى

([2])الأنعام (٣٣)، وانظر : لباب النقول للسيوطى ص (١٠٠).

الله يقر ويعترف بصدق الرسول، ولكن يمنعه من اتباعه حب الزعامة والرئاسة، وصدق من قال: والفضل ما شهدت به الأعداء.

رابعا: الأمانة والوفاء وأداء الوديعة:

إن صفة الأمانة من الصفات الضرورية للأنبياء عليهم السلام، والنبي أمين على الوحي، فهو يبلغ أوامر الله ونواهيه إلى الناس دون زيادة أو نقص، ودون تحريف أو تبديل.

إن هذه الصفة لازمة لجميع الأنبياء عليهم السلام، لذا قال تعالى على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام في مخاطبتهم لأقوامهم: (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)[1] أى" أي: إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني به، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنقص منها،و مأمون على ما أبلغكموه. ومن كان أمينًا على أمور الدنيا كان أمينًا على الوحى والرسالة[2].

فالرسل الكرام عليهم السلام قد أدوا الأمانة على الوجه الذي يرضاه الله سبحانه وتعالى، وكانت الرسل تنصح أقوامها وتردد على ألسنتها أو حالها ينطق بذلك، لقوله تعالى:(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ

([1])الشعراء (١٠٧)،(١٢٥) ،(١٤٣)،(١٦٢)،(١٧٨).

([2]) انظر: تفسير ابن كثير ٢٥١/٧.

الْعَالَمِينَ)[1]، يقول الإمام ابن كثير – رحمه الله–:" أي: ليست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)[2] وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغة والنصح والأمانة.[3]

لذلك لا يستطيع الرسول أن يبدل أو يغير شيئًا مما أوحي إليه إنما يفعل ما يأمره الله به لقوله تعالى:(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[4]ولو لم يتصف الأنبياء عليهم السلام بالأمانة، لما اختارهم الله أمناء على وحيه من أجل إسعاد البشرية في الدارين.

خامسا: التبليغ:

---

(1) الأعراف (٦٧).

(2)الأعراف (٦٨).

(3) تفسير ابن كثير ٤٣٤/٣.

(4) يونس (١٥).

وهو توصيل جميع ما أمروا بتبليغه إلى من أرسلوا إليهم، ولا يجوز لهم أن يكتموا منه شيئا لأن الكتمان يعني إخفاء بعض قواعد الشريعة، ويعني أيضا تقصيرهم في إظهار شهادتهم إذا كتموا ما أمروا بتبليغه، لقوله تعالى:(فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)[1]، أي: البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا عليهم بالقدر، فليس للرسل من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل[2].

لذلك يجب على الرسل عليهم السلام التبليغ، ولو كان في تبليغ أمر الله للناس إيذاء عظيم لهم أو شر أكيد يلحق بهم من أعدائهم، لقوله تعالى في شأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)[3]. وقال تبارك وتعالى في شأن هود عليه السلام مع قومه: (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)[4]. كما قال تعالى في شأن

([1]) النحل (٣٥).

([2])تفسير ابن كثير ٤٤٠/١.

([3]) المائدة (٦٨).

([4]) الأعراف (٦٨).

صالح عليه السلام مع قومه: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)[1] وما قاله تعالى في شأن شعيب عليه السلام مع قومه:(وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ)[2].

والرسول مبلغ عن الله تعالى، وأنه أمره بتبليغ جميع أحكامه، وشرائعه للناس. لقوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)[3].

وتبليغ الأنبياء ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولا.: الدعوة إلى عبادة الله وحده ، وهي الوظيفة الرئيسة للأنبياء والرسل عليهم السلام لقوله تعالى:(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)[4]

ثانيا: تبليغ شريعة الله إلى البشر، فقال تعالى في الأنبياء والرسل:(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)[1].

([1]) الأعراف (٧٩).
([2]) الأعراف (٩٣).
([3]) المائدة (٦٧).
([4]) النحل (٣٦).

ثالثا: التبشير والإنذار، لقوله تعالى:(رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا).[٢]

ومما يدل على أنهم لم يكتموا شيئا وبلغوا ما أنزل الله عليهم:

أولا: أن الله شهد لهم بأنهم بلغوا، وذلك كثير في القرآن الكريم[٣]، ومنه قوله تعالى:(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)[٤]،وقوله تعالى:(لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)[٥].

ثانيا: إن الله تعالى ذم أهل الكتاب الذين يكتمون شيئا من التوراة والإنجيل، فلم يرض منهم هذا الكتمان، وهم أشخاص عاديون، فكيف يرضاه ممن اختارهم لحمل رسالته؟! بدليل قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[٦].

---

(١) الأحزاب (٣٩).

(٢) النساء (١٦٥).

(٣) العقيدة الإسلامية وأسسها لعبد الرحمن حسن حنبكة ص ٣٩٠.

(٤)الأحزاب (٣٩).

(٥) الجن (٢٨).

(٦) البقرة (١٧٣).

ثالثا: إن الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ولم يكتم شيئا مما أمره الله بتبليغه[1]، لذا قال تبارك وتعالى: (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ)[2].

ولو كان لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتم شيئا مما أمره الله بتبليغه، لكتم ألوان العتاب التي وجهت إليه من قبل الله في القرآن الكريم، وذلك في مثل قصة انشغاله عن ابن أم مكتوم الأعمى بدعوة كبار المشركين إلى الإسلام، ومعاتبة الله له في ذلك بقوله تعالى:(عَبَسَ وَتَوَلَّى* أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى)[3]. وكذلك قصة زينب رضي الله عنها مطلقة، زيد بن حارثة الذي كان قد تبناه قبل أن ينزل عليه تحريم التبني: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)[4].

([1]) العقيدة الإسلامية ص (٣٩٠).

([2]) التكوير (٢٤).

([3])عبس (١-٢).

([4]) الأحزاب (٣٧).

وكذلك قوله تعالى في أسرى بدر حيث أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عدم قتلهم:(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[1].

فالرسل عليهم السلام بلغوا ما أمرهم الله، ولم يكتموا شيئا من ذلك، لأن الغرض من التبليغ، أن يقطع الله الحجة على الناس، فلا يبقى لأحد عذر يوم القيامة، لقوله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)[2]. وقد بعث الله خاتم المرسلين سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين نذيرا، أرسله على فترة من الرسل ليقطع على أهل الكتاب معاذيرهم فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، وقد ذكر تبارك وتعالى ذلك في كتابه العزيز فقال وهو أصدق القائلين:(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).[3]

فإذا وجب الاعتقاد في حق الرسل أنهم بلغوا جميع ما أمرهم الله بتبليغه، وجب أن نعتقد أنهم لم يكتموا شيئا مما أمروا بتبليغه. لأن الكتمان ضد

([1])الأنفال (٦٧).

([2])الإسراء (١٥).

([3]) المائدة (١٩).

التبليغ، فإذا وجبت عليهم صفة التبليغ امتنعت عنهم صفة الكتمان، كما أن الأمانة وضدها الخيانة، والصدق وضده الكذب، والفطانة وضدها الغفلة، فهذه الأضداد مستحيلة في حقهم جميعا، أي غير قابلة الثبوت.[1]

سادسا: السلامة من العيوب المنفرة:

إن صفة السلامة من العيوب المنفرة تعد من خصائص الأنبياء عليهم السلام، فالأنبياء لا يتصفون بصفة فيها عيب خلقي ليبتعد الناس عنهم، فلا تتعرض أبدانهم الأمراض شائنة ولا لأعراض تنفر منها طبائع الناس. ويمكن أن تعد الحكمة من ذلك، أنه لما كانت مهمة الرسل عليهم السلام تستدعي مخالطة الناس لدعوتهم وإرشادهم، ولما كانت طبائع الناس تنفر من بعض الأمراض المشينة، كان من حكمة الله أن يحفظ رسله من كل هذه الأعراض المنفرة التي يشمئز الناس منها، ولو تعرض الرسل للأمراض المنفرة لأدى هذا الأمر إلى الابتعاد عنهم، وهذا فيه منافاة لمهمة الرسالة التي تستدعي جلب قلوب أهل الكفر إلى الحق والطاعة بأفضل السبل وأحكمها، وتستدعي تألف قلوب المسلمين للإقبال على رسولهم ومحبته والشوق إلى مجالسته.[2]

([1]) العقيدة الإسلامية وأسسها ص (٣٩١).

([2]) المرجع السابق ص(٣٩١).

والأنبياء وإن كانوا من البشر، فإنه تصيبهم العوارض التي تصيب البشر، إلا أن الله عز وجل صانهم من العيوب المنفرة، وهذا لا يؤدي إلى نقص مراتبهم ولكن فيه ابتلاء من الله عز وجل، وقد أصيب أيوب عليه السلام بمرض ابتلى به، وأصيب بضر في بدنه، لقوله تعالى:(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ)[1]، فإن كثيرًا من القصص وردت فى مرضه وهى من الإسرائيليات ولا يصح تصديقها أو الاعتقاد بها، ولأنها تتنافى مع صفات الأنبياء والقرآن الكريم لم يذكر لنا شيئا من هذا، ولم يذكره الرسول عليه السلام، وإنما الذي ذكره القرآن أنه قد أصابه الضر في بدنه فدعا ربه بعد أن اشتد به الكرب والضر– فكشفه الله عنه وشفاه، فإن الضر الذي أصابه كان في جسمه وأهله، وهذا النوع من الضر يلحق البشر ويلحق الأنبياء، فإن المرض يعتري الأنبياء كما يعتريهم الموت، وليس في ذلك شيء ينقص من قدرهم أو يزري بمقامهم.[2]

سابعًا : البشرية

([1]) الأنبياء (٨٣–٨٤).

([2]) النبوة والأنبياء للصابونى ص (٥٠).

الذين يستعظمون ويستبعدون اختيار الله بعض البشر لتحمّل الرسالة لا يقدرون الإنسان قدره، فالإنسان مؤهل لتحمّل الأمانة العظمى، أمانة الله التي أشفقت السماوات والأرض والجبال من حملها،(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)[1]

والذين استعظموا اختيار الله البشر رسلاً نظروا إلى المظهر الخارجي للإنسان، نظروا إليه على أنه جسد يأكل ويشرب وينام، ويمشي في الأرض لتلبية حاجاته (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا)[2]، ولم ينظروا إلى جوهر الإنسان، وهو تلك الروح التي هي نفخة من روح الله (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)[3]،وبهذه الروح تميز الإنسان، وصار إنساناً، واستخلف في الأرض، وقد أودعه الله الاستعداد للاتصال به عن طريق تلك النفخة العلوية التي ميزته، فلا عجب أن يختار الله واحداً من هذا الجنس، صاحب استعداد

([1])الأحزاب (٧٢).

([2]) الفرقان (٧).

([3]) الحجر (٢٩).

للتلقي، فيوحي إليه ما يهدي به إخوانه إلى الطريق كلّما غم عليهم الطريق، وما يقدم به إليهم العون كلّما كانوا بحاجة إلى العون.

فمن هنا اقتضت حكمة الله عز وجل أن يبعث رسلا من البشر، فيهم جميع مواصفات البشر ليكونوا في أقوالهم وأفعالهم ودعوتهم حجة على الناس، وليكونوا هنا أدعى للقدوة بالرسل لأنه داخل في استطاعة البشر وفي مقدورهم. فالأنبياء عليهم السلام بشر، فيجوز في حقهم الأعراض البشرية التي لا تتنافى في أصل مهمتهم كالأمراض غير المنفرة والأكل والشرب والنكاح، لذا يقول تعالى:(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ)[1].

ثامنا : اختار الله رسله من صنف الذكورة :

وبالنظر لواقع حال الرسل نرى أن الله سبحانه لم يختر رسله من النساء ، وفي ذلك حكمة عالية،لأن الاصطفاء بالرسالة من أصناف البشر لا بد أن يلاحظ فيه الأجدر بحمل الرسالة ، وصنف الرجال أجدر بحمل الرسالة من صنف النساء الأمور تقتضيها ظروف الدعوة في صفوف الرجال ولأن الرسول هو الآمر الناهي والحاكم والقاضي في أمته ، وهو القوام عليهم في

([1]) الأنبياء (٨).

أمورهم كلها ، ولو كانت أنثي لم يتم ذلك بوجه كامل، ولاستنكف الأقوام عن الاتباع والطاعة ، واتهموا حكمة الله . المرأة يطرأ عليها ما يعطلها عن كثير من الوظائف والمهمات، كالحيض والحمل والولادة والنفاس،وتصاحب ذلك اضطرابات نفسية وآلام وأوجاع، عدا ما يتطلبه الوليد من عناية ، وكل ذلك مانع من القيام بأعباء الرسالة وتكاليفها .

وكل ذلك مما يجعل كمال الحكمة .. الربانية أن يكون الاصطفاء بالرسالة من خصائص صنف الرجال من البشر. قال الله تعالى:(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [1].

ولكن ذهب بعض العلماء[2]إلى أنّ الله أنعم على بعض النساء بالنبوة ، فمن هؤلاء أبو الحسن الأشعري والقرطبي وابن حزم [3] .

والذين يقولون بنبوة النساء متفقون على نبوة مريم ، ومنهم من ينسب النبوة إلى غيرها ، ويعدّون من النساء النبيات : حواء وسارة وأمّ موسى وهاجر وآسية .

([1])الأنبياء (٧).

(٢)يزعم اليهود أن مريم أخت موسى وهارون كانت نبيّة (لوامع الأنوار البهية : ٢٦٦/٦) .

(٣)انظر فتح الباري : ٤٤٧/٦ – ٤٤٨ ، ٤٧٣/٦ ، وانظر لوامع الأنوار البهية : ٢٦٦/٢ .

وهؤلاء عندما اعترض عليهم بالآية التي تحصر الرسالة في الرجال دون النساء ، قالوا: نحن لا نخالف في ذلك ، فالرسالة للرجال ، أمّا النبوة فلا يشملها النصُّ القرآني، وليس في نبوة النساء تلك المحذورات التي عددتموها فيما لو كان من النساء رسول ، لأنَّ النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ، يعمل بها ، ولا يحتاج إلى أن يبلغها إلى الآخرين .

أدلتهم :

وحجّة هؤلاء أن القرآن أخبر بأن الله تعالى أوحى إلى بعض النساء ، فمن ذلك أنه أوحى إلى أمّ موسى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)[1]، وأرسل جبريل إلى مريم فخاطبها (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)[2] وخاطبتها الملائكة قائلة :(وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)[3] .

---

(1) القصص (٧).

(2) مريم (١٧-١٩).

(3) آل عمران (٤٢).

فأبو الحسن الأشعري يرى أنّ كلَّ من جاءه الملك عن الله – تعالى – بحكم من أمر أو نهي أو بإعلام فهو نبي [1](٣) ، وقد تحقق في أمّ موسى ومريم شيء من هذا ، وفي غيرهما أيضاً ، فقد تحقق في حواء وسارة وهاجر وآسية بنصّ القرآن .

واستدلوا أيضاً باصطفاء الله لمريم على العالمين (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)[2] وبقوله صلى الله عليه وسلم : (كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون)[3] .قالوا : الذي يبلغ مرتبة الكمال هم الأنبياء .

الردّ عليهم :

وهذا الذي ذكروه لا ينهض لإثبات نبوة النساء ، والرد عليهم من وجوه :

الأول: أنّا لا نسلم لهم أن النبيَّ غير مأمور بالتبليغ والتوجيه ومخالطة الناس، والذي اخترناه أن لا فرق بين النبيّ والرسول في هذا، وأنَّ الفرق واقع في كون النبي مرسل بتشريع رسول سابق.

---

(١)يزعم اليهود أن مريم أخت موسى وهارون كانت نبيّة (لوامع الأنوار البهية : ٢٦٦/٦) .

(٢) انظر فتح الباري : ٤٤٧/٦.

([2]) آل عمران (٤٢).

([3]) صحيح البخاري : ٣٧٦٩ . وصحيح مسلم : ٢٤٣١ .

وإذا كان الأمر كذلك فالمحذورات التي قيلت في إرسال رسول من النساء قائمة في بعث نبي من النساء ، وهي محذورات كثيرة تجعل المرأة لا تستطيع القيام بحقّ النبوة.

الثاني: قد يكون وحي الله إلى هؤلاء النسوة أم موسى وآسية .. إنّما وقع مناماً ، فقد علمنا أنّ من الوحي ما يكون مناماً، وهذا يقع لغير الأنبياء.

الثالث: لا نسلم لهم قولهم : إن كل من خاطبته الملائكة فهو نبي، ففي الحديث أن الله أرسل ملكاً لرجل يزور أخاً له في الله في قرية أخرى ، فسأله عن سبب زيارته له ، فلمّا أخبره أنه يحبّه في الله، أعلمه أنَّ الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبّه، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى معروفة ، وقد جاء جبريل يعلم الصحابة أمر دينهم بسؤال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة يشاهدونه ويسمعونه[1].

الرابع: أنّ الرسول – صلى الله عليه وسلم – توقف في نبوة ذي القرنين مع إخبار القرآن بأنّ الله أوحى إليه:(قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)[2].

([1])ارجع في هذه النصوص ، والنصوص المشابهة لها إلى الجزء الثاني من سلسلة مجموعة عقيدة المسلم للأستاذ .د . عمر الأشقر : (عالم الملائكة الأبرار) .

(٢) الكهف (٨٦).

الخامس: لا حجّة لهم في النصوص الدالة على اصطفاء الله لمريم ، فالله قد صرح بأنّه اصطفى غير الأنبياء :(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)[1]، واصطفى آل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ومن آلهما من ليس بنبيّ جزماً ،(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) [2].

السادس: لا يلزم من لفظ الكمال الوارد في الحديث الذي احتجوا به النبوة، لأنّه يطلق لتمام الشيء، وتناهيه في بابه، فالمراد بلوغ النساء الكاملات النهاية في جميع الفضائل التي للنساء، وعلى ذلك فالكمال هنا غير كمال الأنبياء .

السابع: ورد في بعض الأحاديث النصّ على أن خديجة من الكاملات [3] وهذا يبين أن الكمال هنا ليس كمال النبوة .

---

(١) فاطر (٣٢).

(٢) آل عمران : ٣٣ .

(٣) الحديث أخرجه ابن مردويه ، انظر البداية والنهاية : (٦١/٢) .

الثامن: وصف مريم بأنها صديقة في مقام الثناء عليها والإخبار بفضلها ، قال تعالى:(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)[1] فلو كان هناك وصفاً أعلى من ذلك لوصفها به ، ولم يأت في نصّ قرآني ولا في حديث نبويّ صحيح إخبار بنبوة واحدة من النساء .

وقد نقل القاضي عياض عن جمهور الفقهاء أنّ مريم ليست بنبيّة ، وذكر النووي في الأذكار عن إمام الحرمين أنّه نقل الإجماع على أنّ مريم ليست نبيّة ، ونسبه في شرح المهذب لجماعة ، وجاء عن الحسن البصري : ليس في النساء نبيّة ولا في الجنّ [2].

المبحث الرابع

طريق إعلام الله أنبياءه ورسله

سمي الله الطريق الذي يعلم الله به أنبياءَه ورسله وحياً، قال تعالى:(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

([1]) المائدة (٧٥).

([2]) فتح الباري : ٦/٤٧١ ، ٤٧٣

وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا)[1].

والوحي في اللغة: الإعلام الخفّي السريع مهما اختلفت أسبابه[2]، فقد يكون بالإلهام كوحي الله إلى الحواريين:(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)[3] وكوحي الله لأم موسى:(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)[4] ويأتي بمعنى الإيماء والإشارة، فقد سمّى القرآن إشارة زكريا إلى قومه وحياً:(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)[5].

وأكثر ما وردت كلمة (وحي) في القرآن الكريم بمعنى إخبار وإعلام الله من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، بطريقة سرّية خفيّة، غير معتادة للبشر.

---

(1) النساء (١٦٣).

(2) انظر: فتح الباري : ٩/١ ، والمصباح المنير : ٦٥١ ، ٦٥٢ .

(3) المائدة (١١١).

(4) القصص (٧).

(5) مريم (١١).

للوحي الذي يعلم الله به رسله وأنبياءَه مقامات، قال الله تعالى مبيِّناً هذه المقامات: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)[1] .

فالمقامات ثلاثة:

الأولى: الإلقاء في روع النبي الموحى إليه، بحيث لا يمتري النبي في أنّ هذا الذي ألقي في قلبه من الله تعالى، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال:"إنّ روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله،وأجملوا في الطلب"[2]. وذهب ابن الجوزي إلى أن المراد بالوحي في قوله: (إلاَّ وحياً) الوحي في المنام[3].

رؤية الأنبياء:

وهذا الذي فسّر به ابن الجوزي المقام الأول داخل في الوحي بلا شّك، فإنّ رؤيا الأنبياء حقٌ، ولذلك فإنَّ خليل الرحمن إبراهيم بادر إلى ذبح ولده عندما رأى في المنام أنّه يذبحه، وعدّ هذه الرؤيا أمراً إلهياً، قال تعالى في

([1]) الشورى (٥١).

([2])حديث صحيح بشواهده أخرجه أبو نعيم في ((الحلية)) ٢٦/١٠ ، ٢٧ ، من حديث أبي أمامة ، وأورده البغوي في ((شرح السنة)) ٣٠٣/١٤-٣٠٤ (٤١١١-٤١١٣) من عدة طرق عن ابن مسعود مرفوعاً ، وانظر ((المستدرك)) ٥/٢ (٢١٣٦) ، و ((كشف الخفاء)) ٢٨٦/١ (٧٠٧) ط. مؤسسة الرسالة .

([3]) زاد المسير : (٢٩٧/٧) .

إبراهيم وابنه إسماعيل: (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ *وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ). [1]

وفي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – قالت: " أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في المنام، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح "

المقام الثاني: تكليم الله لرسله من وراء حجاب:

وذلك كما كلَّم الله تعالى موسى عليه السلام، وذكر الله ذلك في أكثر من موضع في كتابه:(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)[2]، وقال تعالى :(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى

([1]) الصافات (١٠١-١٠٥).

([2]) الأعراف(١٤٣)

* إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) [1]، وممن كلّمه الله آدم عليه السلام (قال يا آدم أَنبِئْهُم بأسمائهم فلمَّا أَنبَأَهُمْ بأسمائهم.) [2]، وكلّم الله عبده ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم عندما عرج به إلى السماء[3].

المقام الثالث: الوحي إلى الرسول بواسطة الملك:

وهذا هو الذي يفقه من قوله تعالى:(أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)[4]وهذا الرسول هو جبريل، وقد يكون غيره وذلك في أحوال قليلة (٧).

صفة مجيء الملك إلى الرسول:

بالتأمل في النصوص في هذا الموضوع نجد أنّ للملك ثلاثة أحوال:

الأول: أن يراه الرسول صلى الله عليه وسلم على صورته التي خلقه الله عليها، ولم يحدث هذا لرسولنا صلى الله عليه وسلم إلا مرتين.

الثاني: أن يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس، فيذهب عنه وقد وعى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ما قال.

---

(1) طه (١١-١٤).

(2) البقرة (٣٣)

(٣) انظر: عالم الملائكة أ.د. عمر الأشقر : ص ٤٠ .

(4) الشورى (٥١).

الثالث: أن يتمثل له الملك رجلاً فيكلّمه ويخاطبه ويعي عنه قوله، وهذه أخف الأحوال على الرسول صلى الله عليه وسلم وقد حدث هذا من جبريل في اللقاء الأول عندما فجأه في غار حراء.[1]

بشائر الوحي:

كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل معاينته للملك، يرى ضوءاً، ويسمع صوتاً، ولكنه لا يرى الملك الذي يحدث الضوء، ولا يرى مخاطبه والهاتف به، روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: " مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة خمس عشرة سنة، يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً، وثمان سنين يوحى إليه، وأقام بالمدينة عشراً "[2].

قال النووي:" يسمع الصوت ويرى الضوء " قال القاضي: " أي: صوت الهاتف من الملائكة، ويرى الضوء، أي: نور الملائكة، ونور آيات الله، حتى رأى الملك بعينيه، وشافهه بوحي الله "[3]

أثر الملك في الرسول:

---

(1) انظر: عالم الملائكة أ.د. عمر الأشقر : ص ٤٠ .

(2) انظر النووي على مسلم : (١٠٤/١٥) . وهذا الذي ذكره ابن عباس خلاف المحفوظ في مقدار المدة التي كان يوحى إليه فيها بمكة ، فالمحفوظ أنه أوحي إليه في سنّ الأربعين وهاجر وعمره ثلاث وخمسون سنة ، فتكون المدة ثلاث عشرة سنة .

(3) النووي على مسلم : (١٠٤/١٥) .

من المزاعم التي يدعيها المكذبون بالرسل أن ما كان يصيب الرسول صلى الله عليه وسلم إنّما هو نوع من الصرع، أو اتصال من الشياطين به، وكذبوا في دعواهم، فالأمران مختلفان، فالذي يصيبه الصرع يصفرُّ لونه، ويخفُّ وزنه، ويفقد اتزانه، وكذلك الذي يصيبه الشيطان، وقد يتكلم الشيطان على لسانه، ويخاطب الحاضرين، وعندما يفيق من غيبوبته لا يدري ولا يذكر شيئاً ممّا خاطب به الشيطان الحاضرين على لسانه، أمّا الرسول صلى الله عليه وسلم فإن اتصال الملك به نماء في جسده، وإشراق في وجهه، ثمّ إن الجالسين لا يسمعون كلاماً، إنما يسمعون دوياً كدويّ النحل عند وجهه[1]، ويقوم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وقد وعى كلّ ما أخبر به الملك، فيكون هو الذي يخبر أصحابه بما أوحي إليه.

فقد أخبرتنا عائشة – رضي الله عنها وعن أبيها – أنها رأت الرسول صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً [2].

---

(1) رواه أحمد في ((المسند)) ٣٥٠/١ (٢٢٣) ، والترمذي (٣١٧٣) ، والنسائي في ((السنن الكبرى)) ١٦٩/٢-١٧٠ (١٤٤٣) من حديث عمر بن الخطاب –رضى الله عنه–.

(٢)صحيح البخاري .

وفي رواية عنها:" إن كان لينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغداة الباردة، ثم تفيض جبهته عرقاً" [1].

وأخبرتنا أنّ ناقته عندما كان يوحى إليه وهو فوقها يضرب حزامها وتكاد تبرك به من ثقله فوقها[2] ويذكر أحد الصحابة أنّ فخذه كانت تحت فخذ النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل إليه، فكادت فخذ النبي صلى الله عليه وسلم حين الإنزال إليه ترض فخذ الصحابي [3].

المبحث الخامس

وجوب الإيمان بعموم رسالته صلى الله عليه وسلم

إن من الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم الإيمان بجميع ما جاء به، ومما جاء به صلى الله عليه وسلم الإخبار بعموم رسالته للإنس والجن بجميع أجناسهم وأشكالهم وألوانهم ومللهم ولغاتهم. لذا فإنه يجب أن يعلم أن الله عز وجل أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم إلى جميع الثقلين الإنس والجن وأنه أوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاعته.

---

(١)صحيح مسلم : ٢٣٣٣ .

(٢)أشار إلى هذا البيهقي في الدلائل عن عائشة (انظر فتح الباري: ٢١/١) .

(٣)أخرجه أحمد في ((المسند)) ٤٨٠/٣٥ (٢١٦٠١) ، والبخاري (٢٨٣٢) من حديث زيد بن ثابت .

وعموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وعالميتها هي إحدى الخصائص التي انفرد بها صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء قبله، إذ كان النبي إنما بعث إلى قومه خاصة ثم يبقى غيرهم محتاجا إلى من يبلغهم أمر الله عز وجل، أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد بعثه الله للناس كافة بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فهو المبعوث رحمة للعالمين، فعمت رسالته جميع المكلفين إنسهم وجنهم، كما صحبت كذلك الزمان في مسيرته، فإذا انتهى جيل من الناس فإن الجيل الذي يليه مخاطب ومكلف بها.

والإيمان بعموم الرسالة وعالميتها هو الذي يدين به كل مسلم يؤمن بالله ورسوله، فهذا ما جاءت به آيات الكتاب الكريم ونصوص السنة الثابتة، فهو من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة والتي أجمعت عليها الأمة(١).

المطلب الأول

الأدلة من القرآن على عموم رسالته

وردت آيات كثيرة في كتاب الله العزيز تثبت عموم دعوته وعالمية رسالته صلى الله عليه وسلم ومن سمة هذه الآيات أنها اتصفت بتنوع العبارة مع اتحاد في المضمون الذي هو الدلالة على عموم الرسالة وعالميتها.

(١) انظر: حقوق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته في ضوء الكتاب والسنة لمحمد التيمى ٨٤/١.

وسوف نعرض لهذه الآيات بحسب اتحادها في السياق.

أ- الآيات التي ورد فيها لفظ "الناس" منها:

قوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعا)[1].

وقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاس) [2].

وقوله تعالى: (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً) [3].

وقوله تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً)

وقوله تعالى: (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِم) [4].

وقوله تعالى: (هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ) [5].

وقوله تعالى: (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [6].

---

(١) الآية (١٥٨) من سورة الأعراف.

(٢) الآية (٢٨) من سورة سبأ.

(٣)الآية (٧٩) من سورة النساء.

(٤) الآية (٢) من سورة يونس.

(٥) الآية (٥٢) من سورة إبراهيم.

(٦)الآية (١) من سورة إبراهيم.

والشاهد من هذه الآيات أنها بينت شمول رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للناس[1] جميعًا. قال صاحب اللسان: "الناس قد يكون من الإنس ومن الجن"[2].

فلفظ الناس يطلق على الجن والإنس كما في قوله تعالى: (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) [3] فسمى الله الجن في هذا الموضع ناسا كما سماهم في موضع آخر رجالا، فقال: (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ) [4] فجعل الجن رجالا وكذلك جعل منهم ناسا[5]. وهناك رأي آخر يقول إن لفظ الناس دخل فيه الجن تغليبا[6].

والذي أراه أن الآيات تفسر بالمعنى الشامل للإنس والجن إذ لا مخصص للعموم هنا.

---

(١)لفظ "الناس" فيه وجهان: أحدهما: أن يكون جمعا لا واحد له من لفظه وإنما واحده "إنسان" وواحدته "إنسانة"، والوجه الآخر: أن يكون أصله "أناس" أسقطت الهمزة منها لكثرة الكلام بها تخفيفا، ثم أدخلت الألف واللام المعرفتان، فأدغمت اللام التي دخلت مع الألف فيها للتعريف في النون. انظر: تفسير الطبري (١/ ١١٦).

(٢) لسان العرب (٦/ ٢٤٤) مادة نوس.

(٣)الآيتان (٥– ٦) من سورة الناس.

(٤)الآية (٦) من سورة الجن.

(٥) تفسيرالطبرى (٣٠/٣٥٦).

(٦)تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٥).

وكنموذج لتفسير ما أوردته من آيات في هذا الشأن أذكر ما قاله بعض علماء التفسير في بيان قوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً)، قال أبو جعفر الطبري في تفسيرها: "قل يا محمد للناس كلهم (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) لا إلى بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي من الرسل مرسلا إلى بعض الناس دون بعض، فمن كان منهم أرسل كذلك، فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض، لكنها إلى جميعكم"(١).

وقال ابن كثير: يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم (قُلْ) يا محمد (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) أي جميعكم وهذا من شرفه وعظمه صلى الله عليه وسلم أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة"(٢).

ب- الآيات التي ورد فيها لفظ "العالمين": ومنها

- قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (٣).

- وقوله تعالى: (قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) (٤).

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٤- ٢٥٥).

(٣) الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء.

(٤) الآية (٩٠) من سورة الأنعام.

– وقوله تعالى: (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) [1].

– وقوله تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً)

– وقوله تعالى: (وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) [2].

– وقوله تعالى: (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ، إن هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) [3]. والمراد بالعالمين هنا هم الإنس والجن إذ هم المكلفون، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "العالمون الجن والإنس، دليله قوله تعالى: (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) ولم يكن نذيرا للبهائم"[4].

ج– الآيات التي ورد فيها لفظتا "كافة" و"جميعا" وهي:

قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [5]. وقوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) [6]. وهناك ثلاث عبارات هي: "الناس" و"كافة" و"جميعا" دلت جميعها على العموم.

د– الآية التي ورد فيها لفظ "ومن بلغ":

---

(١) الآية (١٠٤) من سورة يوسف.

(٢) الآية (٥٢) من سورة القلم

(٣)الآيتان (٢٦، ٢٧) من سورة التكوير.

(٤) تفسير القرطبي (١/ ١٣٨).

(٥)الآية (٢٨) من سورة سبأ.

(٦) الآية (٥٨) من سورة الأعراف.

قال تعالى: (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) [1].

فالشاهد من الآية هو قوله تعالى: (لأنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) فلفظ (من) في قوله (وَمَنْ بَلَغَ) من صيغ العموم، فالآية نص في عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم. ومعنى الآية أن الله يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه إن الله أوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة، أو يا معشر العرب ومن بلغه هذا القرآن سواء كان عربيا أو عجميا وسواء كان موجودا الآن، أم سيأتي بعد إلى أن تقوم الساعة وهذا هو الذى ذكره أهل التفسير عند هذه الآية[2]

هـ- الآيات التي ورد فيها خطاب الجن ومنها:

- قوله تعالى: (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً) [3] إلى آخر الآيات التي نزلت في شأن دعوة الجن إلى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وسميت هذه السورة بسورة الجن.

---

(١) الآية (١٩) من سورة الأنعام.

(٢) انظر : تفسير الطبري (٧/ ١٦٢، ١٦٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٢٦).

(٣)الآيتان (١، ٢) من سورة الجن.

– وقوله تعالى: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [1] والآيات نزلت في جن نصيبين[2] عندما سمعوا القرآن، فآمن به من آمن منهم ثم ولوا إلى قومهم منذرين، ثم أتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فبايعوه على الإسلام بشعب معروف بمكة، والأحاديث بذلك كثيرة مشهورة في الصحيح والسنن والمسند وكتب التفسير والفقه وغيرها[3].

– وكذلك فإن سورة الرحمن هي خطاب للثقلين الإنس والجن معًا.

و– الآيات التي وردت في دعوة أهل الكتاب:

ومنها: (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) [4].

---

(١)الآيات (٢٩– ٣٠– ٣١) من سورة الأحقاف.

(٢) مدينة تقع في تركيا بالقرب من الحدود السورية. أطلس العالم (ص ٥٢).

(٣) انظر: كتاب النبوات لابن تيمية (ص ٣٩٦).

(٤)الآية (٢٠) من سورة آل عمران

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

المطلب الثاني

الأدلة من السنة على عموم رسالته

الأدلة على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم وعالميتها كثيرة جدا في السنة النبوية سواء من الناحية القولية أو الناحية العملية وسنعرض هنا لكلتا الناحيتين بإذن الله.

أ- السنة القولية:

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة" (١).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت

(١) أخرجه البخارى في صحيحه، كتاب التيمم واللفظ له. انظر فتح الباري (١/ ٤٣٥- ٤٣٦) ح ٣٣٥، وكذلك ٤٣٨- ٣١٢٢، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد (٢/ ٦٣).

لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون"[1].

ب- السنة العملية:

إن المتأمل في سيرته ودعوته صلى الله عليه وسلم يعلم حرصه صلى الله عليه وسلم على نشر الرسالة وإبلاغها لجميع المكلفين، فقد دعا صلى الله عليه وسلم الإنس على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، سواء كانوا أهل كتاب أم ليسوا بأهل كتاب، كما دعا الجن كذلك فآمن له من آمن منهم وبايعوه على الإسلام.

ولقد صدع النبي صلى الله عليه وسلم بعالمية الرسالة وعمومها في أوائل دعوته عندما انتقل من المرحلة السرية في الدعوة إلى المرحلة الجهرية حيث قال صلى الله عليه وسلم بعد أن حمد الله: "إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها للجنة أبدا أو النار أبدا"[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد (٢/ ٦٤).

(٢) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٦١).

وإن المتأمل للآيات القرآنية التي نصت على عموم رسالته وعالميتها يجد أن جلها كان مكي النزول، وهذا يؤكد أن عالمية الرسالة مقررة منذ بداية الوحى.

ومن المعلوم أن طريقة الدعوة كانت تتبع أسلوب التدرج في التبليغ وهذا التدرج لم يكن ينافي شمول الدعوة لكل المكلفين، لأن المرحلية كانت ضرورية لدعوته صلى الله عليه وسلم، ولقد دلت السيرة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم اتبع أسلوب التدرج في إبلاغ الرسالة، فأول ما بدأ به هو الدعوة السرية لهذا الدين فآمن له من آمن.

ثم انتقل إلى الدعوة الجهرية ونهج فيها كذلك أسلوب التدرج فبدأ بأهل مكة عندما نزل عليه قوله تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)[1]فدعاهم صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام.

ثم بعد ذلك أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس في مجامعهم وأسواقهم ويبلغهم دعوة الله.

ثم ذهب إلى الطائف ودعا أهلها إلى الإسلام ولكنهم لم يجيبوه لذلك، ثم عاد إلى مكة وأخذ يعرض دعوته على القبائل في الموسم إلى أن التقى بالخزرج

(١) الآية (٢١٤) من سورة الشعراء.

وهم من أهل المدينة وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وأسلم النجاشي من قبلهم وكان على النصرانية.

ومن هنا كانت بداية المرحلة الجديدة في الدعوة فبعد تمكن الإسلام بالمدينة، هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إليها فاتسع بذلك نطاق الدعوة حتى شمل أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا بالمدينة حينئذ، كما تنوعت كذلك أساليب الدعوة إلى هذا الدين فشرع الجهاد في سبيل الله واتسعت رقعة الدعوة فشملت قبائل العرب ومن كان في جزيرة العرب من أهل الكتاب كيهود المدينة وخيبر ونصارى نجران واليمن وغيرهم، واستمر التدرج إلى أن كان عام الحديبية ومهادنة قريش فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت إلى جميع الطوائف يدعوهم إلى الإسلام.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى[1].

ويمكن ذكر ثلاثا من هذه الرسائل:

١- رسالته صلى الله عليه وسلم إلى كسرى عظيم فارس:

(١)أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير: باب كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الكفار يدعوهم الى الله عز وجل (٥/ ١٦٦).

"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس: سلام على من أتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فاسلم تسلم، فإن أبيت، فإن إثم المجوس عليك "[1].

٢- رسالته صلى الله عليه وسلم إلى قيصر ملك الروم:

"بسم الله الرحمن الرحيم إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من أتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك أثم الأريسيين "[2].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري للأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٢/ ٦٥٥. وانظر فقه السيرة النبوية ص٢٥٤. د. محمد سعيد رمضان. والحديث أخرجه البخاري ١٩٧٥، برقم (٤٥٥٣)، كتاب تفسير القرآن، باب {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا تعبد إلا الله سورة آل عمران الآية ٦٤.

(٢) أخرجه البخاري ١٩٧٥، برقم ٤٥٥٣، كتاب تفسير القرآن، باب {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينهم ألا تعبد إلا الله} .

٣- كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك الحبشة قال فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، واشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم

بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرا، و نفرا معه من المسلمين، فإذا جاؤك فأجرهم، ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلغت ونصحت، فاقبلوا تصحى، والسلام على من اتبع الهدى. [١]

فان كثيرًا من الملوك والأمراء من استجاب لدعوته صلى الله عليه وسلم فمنهم من اسلم مثل النجاشي الذي رد على النبي عليه السلام، فقال: "إن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله، فإني اشهد أن ما تقول حق، والسلام يا رسول الله"[٢]. ومن لم يسلم، كان رده ردا جميلا رقيقا مما يدل على قوة

---

(١)انظر: تاريخ الطبرى ٦٥٢/٢.

(٢) انظر: المرجع السابق ٦٥٢/٢.

الإسلام وعالميته، وسماحة دعوته قال المقوقس: إني نظرت في أمر هذا النبي، فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينتهي عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكذاب، وكذلك أسلم المنذر بن ساوى ملك البحرين، ورد معظم الملوك والرؤساء ردودا كلها تقدير واحترام إلى النبي عليه السلام، فإن دل هذا على شيء إنما دل على أن هذه الدعوة ليست مقصورة على جغرافية معينة، بل إنها عالمية غير محدودة، بزمان أو مكان، وغايتها دعوة الخلق كافة إلى عبادة الواحد الأحد، والإيمان بالرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام).

لذا يقول "جورج سارتون" الأستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية: إن الإسلام من أصلح النظم الدينية، وأجملها ردا على حد تعبيره، وهو عندنا أصح تلك النظم وأجملها على الإطلاق، ولكن المسلمين اليوم كثيرو البعد عن حقيقة ما جاء به الإسلام. . . وأورد عبارة الإمام محمد عبده" الإسلام محجوب بالمسلمين[1].

والشاهد من هذا كله أن سيرته صلى الله عليه وسلم هي مثال تطبيقي عملي على شمول دعوته وعالمية رسالته التي من أجلها كرس النبي صلى

(١) انظر: معالم النبوة ل دفوزى عبدالعظيم رسلان ص (٢٤).

الله عليه وسلم حياته لكي ينشرها ويبلغها للناس كافة، لتقوم بذلك الحجة على الناس أجمعين.

المطلب الثالث

الشبهات التي أثيرت حول عموم رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعالميتها

تحدثنا في المطلب السابق عن عموم رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعالميتها، قد يختلط على بعض الناس فهم بعض الآيات المشعرة بعدم العموم والحكم بخصوصية الرسالة ومن هذه الآيات وكذلك الرد عليها:

١- قوله تعالى: (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا)[١] "أي سهلنا القرآن (بلسانك) بأن أنزلناه على لغتك - بلسانك العربي المبين (لتبشر به المتقين) أي: الصائرين إلى التقوى بامتثال ما فيه من الأمر والنهي. [٢]

وهذا يشمل كل من يتبع الدعوة بغض النظر عن لونه وعرقه ولغته لأن القرآن نزل بلغة النبي الذي أمر بالتبليغ والإنذار للناس كافة وإننا نجد في

---

(١) مريم (٩٧).

(٢) روح البيان ٥/٤١٥٤

بعض السور التي وردت فيها هذه الآيات، ما يصرح بعمومية الإنذار، مثل قول الله تعالى: (لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ)[1].

٢- قوله تعالى: (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ). [2]

٣- قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)[3].

فهاتان الآيتان تشعران أن اختصاص نطاق رسالته صلى الله عليه وسلم بأم القرى ومن حولها.

فالمراد بأم القرى مكة وسميت بها لأن الأرض نصبت من تحتها فهي أصل الأرض كلها كالأم أصل النسل وما حولها من العرب، وهذا أي: التبين بالعرب لا ينافي عموم رسالته؛ لأن تخصيص الشيء بالذكر لا ينافي

---

(١) يس (٦).

(٢) الأنعام (٩٢).

(٣) الشورى (٧).

حكم ما عداه، وسميت أم القرى تشريفا لها وإجلالا لاشتمالها على البيت المعظم ومقام إبراهيم، ومكة هي سيدة الأرض.

٤- قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(١).

أي بلغة قومه الذين هو منهم وبعث فيهم وكذلك معرفة قومه بلسانه وديانته، ليبين كل رسول لهم أي لقومه ما دعوا إليه وأمروا بقبوله فيفقهوه عنه بسهولة وسرعة ثم ينقلوه ويترجموه لغيرهم فإنهم أولى الناس بأن يدعوهم وأحق بأن ينذرهم، ولذلك أمر النبي عليه السلام بإنذار عشيرته أولا، بقوله تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) ولقد بعث عليه السلام إلى الناس جميعا بل إلى التقلين.

فهذا هو الأصل في إرسال الرسل، والحكمة من ذلك، فقد صرف الرسول صلى الله عليه وسلم همه أولا في هداية قومه، وإنقاذهم من مهاوي الكفر والضلال، وإتباع الهوي، وهذه حكمة إلاهية اقتضاها الخالق جل فى علاه حين أرسل رسله مبشرين منذرين، وبذلك يتسنى لهم هداية الآخرين، ولو كان

(١) إبراهيم (٤).

الحال عكس ذلك ما آمن أحد، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فيقول سبحانه وتعالى: (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)[1]. فالآية مشعرة بلزوم إتحاد لغة الرسول صلى الله صلى الله عليه وسلم مع لغة من أرسل إليهم، حتى يلزم منه اختصاص دعوته صلى الله عليه وسلم يقومه فقط، إذ الآية تصرح بلزوم موافقة لغة الرسول مع لسان قومه، لا إتحاد لغته مع كل لسان أرسل إليهم كما هو أساس الشبهة.

(١)الشعراء (١٩٨-١٩٩)

المطلب الرابع

وجوب الإيمان به صلى الله عليه وسلم

أوجب الله سبحانه وتعالى على الثقلين – الإنس والجن – الذين أدركتهم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وبما جاء به كما شهدت بذلك نصوص الكتاب العزيز.

كما أكد الله وجوب الإيمان بأن جعله مقترنا بالإيمان به سبحانه وتعالى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم والسنة منها:

أ-الأدلة من القرآن:

قال تعالى: (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ، وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[1] ، وقال تعالى: (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [2].

وقال تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

---

(١) الآيتان (٧-٨) من سورة الحديد.

(٢) الآية (٨) من سورة التغابن.

وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً)[1]، وقال تعالى:(لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)[2]، وقال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[3].

وقال تعالى: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [4]، وقال تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)[5].

وقال تعالى في حق من لم يؤمن: (وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً) [6].

وبما تقدم من آيات يعلم وجوب الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وأهميته وأنه لا يتم الإيمان بالله بدون الإيمان به، كما لا تحصل نجاة ولا

---

(١) الآية (١٣٦) من سورة النساء.

(٢) الآية (٩) من سورة الفتح.

(٣)الآية (١٥٨) من سورة الأعراف.

(٤)الآية (١٣٢) من سورة آل عمران.

(٥)الآية (٢٤) من سورة التوبة.

(٦)الآية (١٣) من سورة الفتح.

سعادة بدون الإيمان به لأنه هو الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، ولذلك كان أول أركان الإسلام "شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله".

ب- الأدلة من السنة على وجوب الإيمان به صلى الله عليه وسلم:

وردت في السنة أحاديث كثيرة جدا تدل على وجوب الإيمان به صلى الله عليه وسلم على الجن والإنس الذين أدركتهم رسالته، سواء كانوا أهل كتاب، أم ليسوا بأهل كتاب، ويستوي في ذلك عربهم وعجمهم، وذكرهم وأنثاهم، فلا يسع أحدا من هؤلاء الخروج عن شريعته أو التعبد لله بغير ما جاء به. لأن الله لا يقبل من أحد عملا يخالف شرع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[1]

وسأورد ههنا بعضا من تلك الأحاديث الواردة في هذا الشأن:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله"[2].

---

(١) الآية (٨٥) من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان: باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله (١/ ٣٩).

٢- وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله" [١].

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "والذي نفس محمد بيده لا يسمع لي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار"[٢]

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما في حديث وفد عبد القيس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: "أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس...." الحديث[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان: باب {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} ، انظر: فتح الباري (١/ ٧٥) ح ٢٥. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان: باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، انظر (١/ ٣٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان: باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١/ ٩٣).

(٣) تقدم تخريجه.

٥- وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله فقال: "إنك تأتي قوما من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم[١].

المطلب الخامس

دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم

أيد الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالدلائل، والمعجزات الكثيرة الدالة على وجوب الإيمان به وصدق رسالته وهذه الدلائل والمعجزات فاقت الألف معجزة كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء[٢] ومنها ما هو حسي ومنها ما هو معنوي، وكذلك هي متنوعة فمنها ما كان قبل مولده كبشارات الأنبياء به ومنها ما كان وقت ولادته كقصة الفيل والعجائب التي حدثت عام مولده الدالة على نبوته، ومنها ما كان عند مبعثه كالقرآن الكريم وانشقاق القمر ونبع الماء بين أصابعه صلى الله عليه وسلم وغير ذلك.

---

(١) شرح النووي جـ١ ص ١٩٦ ، ص ١٩٨.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٤٠).

ومن تلك الدلائل ما استمر بعد وفاته صلى الله عليه وسلم كالقرآن الكريم، وما أخبر به من المغيبات كعلامات الساعة، وما يحدث بعده. ولقد ألف عدد من العلماء مؤلفات في هذا الشأن جمعوا فيها تلك الدلائل والمعجزات[1].

وإن من أعظم دعائم الإيمان معرفة المسلم لهذه الدلائل وأخذ العظة والعبرة منها وذلك بتدبر ما فيها من حكم وآيات دلت على صدق رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم. والمقام هنا لا يستوعب إيراد هذه الدلائل والمعجزات، ولكني سأشير إلى بعض هذه الدلائل إشارات سريعة على سبيل المثال:

معجزة القرآن الكريم:

هو أعظم الآيات والبراهين والدلائل والمعجزات التي أعطيها النبي صلى الله عليه وسلم، وليس من آية أبدع ولا أروع منه.

فهو المعجزة الخالدة التي أعطاها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم لتكون خالدة كخلود رسالته، ومشهودة لكل من أتى بعد زمانه ليعم الانتفاع بها ولتقوم بها الحجة على أهل كل زمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها

(١) ومن تلك المؤلفات: دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، ودلائل النبوة لقوام السنة الأصبهاني، ودلائل النبوة للبيهقي، والخصائص الكبرى للسيوطي.

ولقد تعهد الله بحفظه وبقائه فقال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [1] فكان في هذا الحفظ دوامه وبقاؤه إلى قيام الساعة.ولقد ميز الله نبيه بهذه المعجزة عن سائر إخوانه من الأنبياء كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحي أوحاه الله إلي، فأرجو أني أكثرهم تابعا يوم القيامة" [2].

وفى تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن بالذكر هنا دون المعجزات الأخرى التي أعطيها- والتي تزيد على الألف- إشارة إلى عظم هذه المعجزة ومكانتها حتى أنه أصبح غيرها بالنسبة إليها كلا شيء لشيء.

ولقد تضمنت هذه المعجزة وجوها متعددة من الإعجاز، فالقرآن الكريم معجز بلغته وفصاحته وبيانه وبلاغته وأحكامه وتشريعاته وبما حواه من أخبار وقصص، ومغيبات، وعلوم، فهو معجز من جميع الوجوه، ولقد تحدى الله قوم النبي صلى الله عليه وسلم على أن يأتوا بمثله أو بشيء منه، فالقرآن الكريم نزل بلغتهم فهم يعرفون حروفه ومعانيه، إضافة إلى أنه نزل في أوان وزمان

---

١) الآية (٩) من سورة الحجر

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "بعثت بجوامع الكلم" واللفظ له، انظر فتح الباري (٣/ ٢٤٧) ح ٧٢٧٤.

بلغت فيه قريش ذروة الفصاحة والبلاغة والبيان، فلقد كان فيهم أولوا الأحلام والنهى والأفهام والألسن الحداد، والقرائح الجياد، والعقول السداد.

فالتحدي كان لهم بأمر يعرفون طريقه ولهم بجنسه عهد بل إنهم نبغوا فيه وبلغوا فيه ذروته.

ولذلك فقد توهم كفار قريش في بداية أمرهم أن باستطاعتهم الإتيان بمثله وقدروا أن في وسعهم معارضته فقالوا: (لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) [1].

فجاءهم التحدي من الله على ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى:

التحدي بالإتيان بمثل القرآن وذلك كما جاء في قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) [2].

المرحلة الثانية:

(١) الآية (٣١) من سورة الأنفال.

(٢) الآيتان (٣٣- ٣٤) من سورة الطور.

تحداهم بالإتيان بعشر سور مثله حيث قال تبارك وتعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [1].

المرحلة الثالثة:

حيث تحداهم تبارك وتعالى بالإتيان بسورة واحدة فقال تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [2]، فعجزوا عن الإتيان بسورة واحدة مع شدة الاجتهاد وقوة الأسباب فقد كانوا حريصين على تكذيبه وإبطاله بكل طريق ولكن مع هذا كله فقد عجزوا عن ذلك.

ولقد أخبر الله بعجزهم عند تحديه إياهم بالإتيان بسورة من مثله فقال تعالى: (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) [3].

---

(١) الآية (١٣) من سورة هود.

(٢) الآية (٢٣) من سورة البقرة.

(٣) الآية (٢٤) من سورة البقرة.

ولما عجزوا عن الإتيان بما تحداهم به قطع الله طمعهم على أن يأتوا بمثله فقال تعالى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) [1].

وبعد مرحلة قطع الطمع أنزل الله فواتح السور كـ (الم، الر، المر) وغيرها تقريعا وتوبيخا للكفار، مخبرا لهم أن ما تحداهم به مكون من حروف هي حروف العربية التي يتحدثون بها والتي بلغوا ذروتها فهم أفصح العرب، والقرآن نزل بلغة العرب، ولقد جرت سنة الله بأن يعطي كل رسول من المعجزات ما يناسب ما اشتهر به قومه، فلقد أعطى موسى العصا لاشتهار من أرسل إليهم بالسحر وما يتعلق به، وأعطى عيسى معجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والأعمى لاشتهار قومه بالطب وهكذا، فأعطى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم القرآن لما اشتهرت به قريش من الفصاحة والبيان.

فهذا ما كان من أمر التحدي الذى تحدى الله به أهل مكة وغيرهم من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، وسأعرض لذكر بعض جوانب هذا الإعجاز القرآني الذى عجز الكفار أن يأتوا بمثل هذا القرآن من جهتها **وهى ما يلي:**

---

(١) الآية (٨) من سورة الإسراء.

أولا: تحداهم بفصاحة القرآن وعلو أسلوبه، وأحكامه، ودقة تعبيره، ولذا تكلف بعض سفهاء الأحلام منهم أن يأتوا بسور خيل لهم أنها على نمطه وشاكلته، فأضحكوا على أنفسهم العقلاء، وأما ذووا العقل والرأي منهم فأسلموا أنفسهم إلى العجز وأيقنوا من قرارة نفوسهم أنه الحق وأنه من عند الله لا من كلام البشر ولكن أكثرهم يجهلون فأبوا إلا الكفر أنفة واستكبارا.

ثانيا:تحداهم بتشريعه الكامل الموافق لمقتضى العقل والفطرة، الهادي جميع البشر إلى سواء السبيل من جوانب الحياة كلها عقيدة وعبادة واقتصادا وسياسة وأدبا وأخلاقا مع بقاءه كذلك صالحا لهداية العالم وإصلاحه في جميع جوانب الحياة إلى يوم القيامة.

ثالثا: تحداهم بما تضمنه القرآن من الأخبار الغيبية التفصيلية المسهبة، وبوقوف الرسول صلى الله عليه وسلم من إخوانه المرسلين السابقين موقف المصدق لهم المبين لتحريف أقوامهم شرائعهم، المعلن لخزاياهم وفضائحهم في خروجهم على أنبيائهم بيان الواثق بنفسه المؤمن بما أوحي إليه من ربه، وهو أمي عاش في أمة أمية، ومن أمته أهل الكتاب الذين فضحهم بسوء صنيعهم مع رسلهم وفى شرائعهم ومع ذلك لاذوا بالصمت ولم يردوا عليه ما

اتهمهم به تبرئة لأنفسهم ودفعا للنقيصة والعار عنها، فكان ذلك إيذانا بأنه رسول الله الصادق الأمين وأن ما جاء به إنما هو وحي من رب العالمين[١].

ولقد تضمن القرآن الكريم جوانب أخرى من الإعجاز فنحن في زمان انتشر فيه سلطان العلم المادي وتباهى الإنسان بمعرفته لكثير من الأمور التي خفيت عمن قبله من الأجيال، ولكن كثيرا من هذه الأمور التي يدعي الإنسان اكتشافها ومعرفتها، نجد أن القرآن الكريم قد تحدث عنها وبينها فعلى سبيل المثال تكوين الإنسان في بطن أمه تحدثت عنه آيات كثيرة من القرآن قبل أربعة عشر قرنا من الزمان بينما لم يتعرف علماء الطب على ذلك إلا في زمن متأخر وكذا الأمر بالنسبة لكثير من الأمور الأخرى كتكوين الأرض وعلوم البحار وعلوم الحيوان وشتى أنواع العلوم الأخرى، وقد اهتم عدد من العلماء المسلمين بهذا الشأن فوضوعوا ما يسمى "بهيئة الإعجاز العلمي في القرآن" لبيان سبق القرآن في توضيح كثير من أمور العلم التي يدعي كثير من العلماء الماديين أنها لم تعرف إلا في هذا الزمان.

---

(١) انظر مجلة البحوث الإسلامية، العدد التاسع (ص ٢٧– ٢٨) مقال بعنوان بيان ما يسمى معجزة محمد الخالدة والمعجزة القرآنية إعداد هيئة كبار العلماء.

وهذا كله شاهد بأن كتاب الله العزيز يبقى المعجزة الخالدة التي لا تنتهي عجائبها، قال تعالى:(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً) [1] فلقرآن يبقى معجزا في عصر العلم كما كان معجزا في عصر الفصاحة والبلاغة.

ب- انشقاق القمر:

قال تعالى: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: "أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر"[3].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "انشق القمر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم شقين، فقال: "اشهدوا"[4].

ج- نبع الماء بين أصابعه:

---

(١) الآية (٨٩) من سورة الإسراء.

(٢) سورة القمر (١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب: باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية، فأراهم انشقاق القمر. انظر: فتح الباري (٦/ ٦٣١) ح ٣٦٣٧

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب: باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية، فأراهم انشقاق القمر. انظر: فتح الباري (٦/ ٦٣١) ح ٣٦٣٦.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بإناء وهو الزوراء[1] فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم. قال قتادة: قلت لأنس كم كنتم؟، قال: ثلاثمائة، أو زهاء ثلاثمائة"[2] وقد روى حديث نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة منهم أنس وجابر وابن مسعود.

د- إشباع العدد الكثير من الطعام القليل:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟، قالت: نعم، فأخرجت أقراصا من شعير ثم أخرجت خمارا لها، فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدي، ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فذهبت به فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم. فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "آرسلك أبو طلحة؟" ، فقلت: نعم. قال: بطعام؟، قلت: نعم،

---

(١) الزوراء: موضع بالمدينة عند سوقها في ذلك الوقت. وفاء الوفاء (٤/ ١٢٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له، كتاب المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام. انظر: فتح الباري (٥٨٠/٦) ح ٣٥٧٢، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل: باب في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم (٧/ ٤٩)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه: "قوموا"، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته. فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وليس عندنا ما نطعمهم. فقالت: الله ورسوله أعلم. فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو طلحة معه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هلمي يا أم سليم ما عندك" ، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففت، وعصرت أم سليم عكة فأدمته، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ما شاء أن يقول. ثم قال: "ائذن لعشرة" فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا. ثم قال: "ائذن لعشرة" فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا. ثم قال: "ائذن لعشرة" فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا. ثم قال: "ائذن لعشرة" فأكل القوم حتى شبعوا والقوم سبعون أو ثمانون رجلا"[1].

وأحاديث تكثير الطعام القليل تعددت، وتكررت في مواطن متعددة ورويت عن بضعة عشر من الصحابة، ورواها عنهم أضعافهم من التابعين ثم من لا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب: باب، علامات النبوة في الإسلام. انظر فتح الباري (٦/ ٥٨٦) ح ٣٥٧٨.

يُعد بعدهم، وأكثر هذه الأحاديث مروية في الصحيح وأكثرها في قصص مشهورة، ومجامع مشهورة، ولا يمكن التحدث عنها إلا بالحق، ولا يسكت

فيجب على كل مسلم أن يتدبر في دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ويطَّلع عليها، فإن فيها عظة وعبرة وتزيد من إيمان المرء ويقينه بنبوة خاتم المرسلين وإمامهم، الذي أعطاه الله من الآيات والبراهين ما لم يعط أحدا من الأنبياء قبله.

المبحث السادس

الفرق بين المعجزة والكرامة

أولا: التعريف بالمعجزة :

المعجزة لغة:من عجز، يعجز، وهو الضعف، وهي هنا ضد القدرة[1]. وجاءت لفظة المعجزة بفتح الجيم وكسرها، وهي مفعله من العجز: أي عدم القدرة، وعجز عن الأمر: أي قصر عنه[2]، وجاءت "الهاء" في المعجزة: للمبالغة في الخبر عن عجز المرسل إليهم عن المعارضة، كقولهم "علامة" و "تستابة"[3].

(1)انظر: المفردات للأصفهاني، ص ٣٩١، مادة عجز.

(٢)انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٢/ ٦٩١، مادة عجز.

(٣)انظر: شرح المصطلحات الكلامية، مجمع البحوث الإسلامية، ص ٣٣٣،

المعجزة اصطلاحا:هى أمر ممكن عقلا، مخالفة للعادة، يجريها الله على يد أحد الأنبياء، وتكون مقرونة بدعوى النبوة، وموافقة لدعواه على وجه يعجز المنكرون عن الإتيان بمثلها.

وقد ورد لها مجموعة من التعريفات عند العلماء، فقد عرفها الباجوري بقوله:"هي أمر خارق للعادة يجريه الله على يد مدعي النبوة مقترنة بالتحدي مع عدم المعارضة"[1]. وعرفها علماء الأصول: بأنها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة[2]، وعرفها الجرجاني بأنها: أمر خارق للعادة، داعية إلى الخير والسعادة، مقرونة بدعوى النبوة ، قصد به إظهار صدق من أدعى أنه رسول من الله فهي إذن أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، يجريه الله على يد أنبيائه ورسله لتكون دليلا على صدق ما يدعونه[3].

والله سبحانه وتعالى يجري المعجزات على أيدي أنبيائه ورسله، فتخرق المعتاد والمألوف في قوانين الكون وأنظمته حتى تضع المكذب أمام البرهان

([1]) شرح جوهرة التوحيد، للإمام إبراهيم الباجوري، تنسيق عبد الكريم الرفاعي، ص٢٢٠

([2]) الأربعين في أصول الدين، للإمام فخر الدين الرازي، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، ١/ ٣٨٨

([3]) شرح المقاصد، مسعود عمر سعد الدين التفتازاني، تحقيق عبد الرحمن عميره، ١١/ ٥ ، ، وانظر العقيدة الإسلامية وأسسها ، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص ٣٨٣،

الواضح الدال على صدق الرسول أو النبى، كى تقوم الحجة على الناس، ولا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم فقد وقعت المعجزات على يد المرسلين قبل رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك ما وقع لسيدنا عيسى عليه السلام من نطقه في المهد، وإحياء الموتى، وما حدث لموسى عليه السلام من قلب العصا ثعبان وانفلاق البحر، وكذلك ناقة صالح عليه السلام. ونار سيدنا إبراهيم عليه السلام.

أمثلة لبعض معجزات الأنبياء :

فمن معجزات صالح عليه السلام أن قومه طلبوا منه أن يخرج لهم من صخرة عينوها له ناقة ثم حددوا صفات الناقة فدعا ربه بذلك فأمر الله تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة على الوجه الذي طلبوا[١]. يقول الله تعالى في ذلك :(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[٢] .

(١) تفسير ابن كثير ٤٣٦/٣.

(٢) الأعراف (٧٣).

ومن معجزات إبراهيم عليه السلام جعل الله النار التي أشعلها قومه لتعذيبه وإهلاكه ثم ألقوه فيها بردا وسلاما عليه، قال تعالى:(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ *وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)[1] .

ومن معجزات موسى عليه السلام العصا التي كانت تتحول إلى حية عظيمة إذا ألقاها إلى الأرض ، قال تعالى:(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى* فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى)[2].

ومن معجزات موسى أيضا أنه كان يدخل يده في درع قميصه ثم يخرجها فإذا هي بيضاء تتلألأ كالقمر من غير سوء قال تعالى: (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى)[3].

ومن معجزات عيسى عليه السلام أنه يصنع من الطين ما يشبه الطيور ثم ينفخ فيها فتكون طيورا بإذن الله، ويمسح الأكمه – وهو الأعمى– والأبرص

---

(١) الأنبياء (٦٨– ٧٠).

(٢) طه (١٧– ٢١).

(٣) طه (٢٢).

فيبرآن بإذن الله ، وينادي الموتى في قبورهم فيجيبون بإذن الله . قال تعالى :(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي)[1].

ومن معجزات نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلِّم القرآن العظيم وهو أعظم معجزات الرسل على الإطلاق . قال تعالى :(وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[2] . وقال تعالى : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[3]. ومن معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلِّم انشقاق القمر عندما سأل أهل مكة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلِّم آية فانشق القمر شقين فرآه أهل مكة ورآه غيرهم . قال تعالى : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)[4].

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام الإسراء والمعراج، قال تعالى:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)[5]

---

(١) المائدة (١١٠).

(٢) البقرة (٢٣) .

(٣) الإسراء (٨٨).

(٤) القمر (١).

(٥) الإسراء (١).

ومعجزات الرسل كثيرة خصوصًا معجزات نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلِّم فإن الله أيده بكثير من الآيات والبراهين التي لم تجتمع لنبي قبله وما سقته هنا إنما هو للتمثيل فقط .

ثانيا : التعريف بالكرامة :

الكرامة : أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ولا هو مقدمة لها تظهر على يد عبد ظاهر الصلاح مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح .

فمعنى أمر خارق للعادة : أخرج ما كان على وفق العادة من أعمال.

وغير مقرون بدعوى النبوة : أخرج معجزات الأنبياء .

ولا هو مقدمة لها : أخرج الإرهاص وهو كل خارق تقَدم النبوة .

ويظهر على يد عبد ظاهر الصلاح أخرج ما يجري على أيدي السحرة والكهان فهو سحر وشعبذة .

وكرامات الأولياء كثيرة منها ما ثبت في حق بعض الصالحين من الأمم الماضية . ومن ذلك ما أخبر الله به عن مريم عليها السلام . قال تعالى :

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)[1] .

ومنها : ما أخبر الله به عن أهل الكهف على ما قص الله ذلك في كتابه .

ومن كرامات الأولياء من هذه الأمة ما ثبت في حق أسيد بن حضير رضي الله عنه أنه كان يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة نزلت لقراءته . وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين رضي الله عنه . وكان سلمان وأبو الدرداء رضي الله عنهما يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة أو سبح ما فيها . وخبيب بن عدي رضي الله عنه كان أسيرا عند المشركَين بمكة شرفها الله تعالى وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة .

ومر العلاء الحضرمي رضي الله عنه بجيشه فوق البحر على خيولهم فما ابتلت سروج خيولهم . ووقع أبو مسلم الخولاني رحمه الله في أسر الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : ما أسمع . قال : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال : نعم . فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه

([1]) آل عمران (٣٧).

يصلي فيها وقد صارت بردا وسلاما ، وغير ذلك كثير مما هو منقول في كتب السير والتاريخ .

الفرق بين المعجزة والكرامة :

الفرق بين المعجزة والكرامة : أن المعجزة تكون مقرونة بدعوى النبوة . بخلاف الكرامة فإن صاحبها لا يدعي النبوة وإنما حصلت له الكرامة باتباعَ النبي والاستقامة على شرعه. فالمعجزة للنبي والكرامة للولي . وجماعهما الأمر الخارق للعادة.

وذهب بعض الأئمة من العلماء : إلى أن كرامات الأولياء في الحقيقة تدخل في معجزات الأنبياء لأن الكرامات إنما حصلت للولي باتباع الرسول ، فكل كرامة لولي هي من معجزات رسوله الذي يعبد الله بشرعه.

ومن هذا يتبين أن إطلاق المعجزة على خوارق الأنبياء والكرامة على خوارق الأولياء معنيان اصطلاحيان ليسا موجودين في الكتاب والسنة وإنما اصطلح عليهما العلماء فيما بعد وإن كانا في مدلولهما يرجعان إلى ما تقرر في النصوص من الحق.[1]

([1])كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة،لنخبة من العلماء ، إصدار وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية.

إذا عرفنا مما سبق معنى الكرامة وحقيقتها ، فنقول على وجه التساؤل : هل هناك ما يمنع من وقوع الكرامات للأولياء والصالحين ؟ .

ثم إذا لم يكن هناك ما يمنع من وقوعها ، فهل هي واقعة أو لا؟ ونجيب على هذا التساؤل من الناحيتين :

الناحية الأولى : – إذا عرفنا أن الكرامة من الأمور الممكنة عقلا، وأن كل ما هو ممكن عقلا يجوز بالنظر لذاته أن تتناوله قدرة الخالق العظيم بالخلق والإيجاد ، لحكمة يعلمها هو ، نعلم يقينا أنه لا حجر على الله تعالى وهو الفعال لما يريد في أن يكرم من يشاء من خلقه ، بما يشاء من صور الإكرام

وكما أن بعض الناس يكرمهم الله في مجرى العادات بمنحة العلم ، أو القوة الجسمانية ، أو الرياسة أو السيادة ، أو المال والبنين ، فكذلك لا حجر عليه سبحانه في أن يكرم بعض عباده بأن يجري على أيديهم بعض خوارق العادات ، و قد تكون بعض المنح الربانية الأخرى أفضل وأجل من الإكرام ببعض الخوارق .

ألا نرى أن الله سبحانه جعل من مكافأة المتقين مثلا :

أ- أن يفتح لهم آفاق العلم ، في قوله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[1]

ب - وأن يجعل لهم مخرجا ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، في قوله تعالى:(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)[2]

ج- كما جعل من مكافأة الذين ينصرون دينه النصر والتأييد والسيادة في الأرض ، وذلك بتهيئة الأسباب ، ودفع الموانع وإلقاء الرعب في قلب العدو ، وذلك في مثل قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[3] وأشباه ذلك كثيرة في إكرامات الله سبحانه .

وظاهر أن الإكرام بالعلم أو التأييد بالنصر ، أجل وأرفع من الإكرام مثلا بمشي على الماء ، أو طيران في الهواء، أو طي للمسافات البعيدة في زمن قصير أو فتح أبواب مغلقة ، أو تحضير طعام وشراب في مكان ليس فيه ذلك من دون أساى مادية ظاهرة.

---

(1) البقرة (٢٨٢)

(2) الطلاق (٢-٣).

(3) محمد (٧).

و بهذا الدليل تعلم أن الكرامات جائزة الوقوع، وأنه لا مانع من أن يجريها الله على يد بعض الصالحين من عباده ، إكراما لهم و تأييد للرسول الذين هم من أتباعه.

الناحية الثانية :

وإذا ثبت لدينا أن الكرامات ممكنة عقلا ، ولا مانع من وقوعها ، حق لنا أن نتساءل عن ثبوت وقوعها بالفعل : هل ثبت وقوع الكرامات بطريق يقيني قاطع ، أو لم يثبت ؟

ونجيب على هذا التساؤل بما يلي :

أولا– إن صور كثيرة من الكرامات قد أثبتها القرآن الكريم .

ثانيا– إن أمثلة منها قد أثبتتها أحاديث الرسول الصحيحة، التي تعطي بمجموعها تواترة بالمعنى مثبتا وقوع الكرامات للصالحين بوجه عام.

ثالثا– إن أمثلة أخرى منها وردت في آثار كثيرة عن الصحابة والتابعين وغيرهم، لا داعي لإنكارها بوجه عام.على أنه متى ظهرت أمارات الصدق في طريق روايتها سلمنا بها، ولم يضرنا التسليم ، ما لم يكن موضوع الكرامة المنسوبة لشخص ما يتضمن مخالفة لظاهر الشرع، أو التغاضي عن

المعاصي و المنكرات، أو الرضا بتعطيل أحكام الله ، أو نحو ذلك. فإن تضمنت شيئا من ذلك رفضناها رفضا باتا، بل هي ليست بكرامة في حقيقتها وإنما هي إن صحت ضلالة من ضلالات الشياطين .

ونعرض فيما يلي أمثلة من الكرامات ثبتت في القرآن بيقين، وأخرى ثبتت في الأحاديث النبوية بأسانيد صحيحة، وبذا أخرى وردت عن بعض الصحابة في الآثار الصحيحة و المقبولة .

(١) ما ثبت في القرآن الكريم من الكرامات

أ- **قصة أهل الكهف** التي قصها الله علينا في سورة الكهف : " . وقصة هؤلاء : أنهم فتية مؤمنون فروا من ظلم الملك الكافر الذي كان في زمانهم ، فأووا إلى كهف في بعض الجمال ، فأماتهم الله ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعة ، ثم بعثهم بعد ذلك و أيقظهم من نومهم الطويل[١] .

وهذا الأمر من خوارق العادات بالنسبة إلى البشر ، وقد أكرمهم الله بذلك وهم فتية مؤمنون صالحون وليسوا بأنبياء، وقد أجمل القرآن تفصيلها فى قوله

([١]) ذكر المؤرخون : أن هؤلاء الفتية كانوا على دين النصرانية بمدينة ، أفسوسن ، أو : الطرسوس »، وقد فروا من الملك « دقيوس ، ويقال : دقيانوس ، وقد حكم هذا :الملك سنة واحدة من سنة ٢٣٦ إلى سنة ٢٣٧ ميلادية ، وكان هذا الملك قد خرج على سلفه « غور ذيانوس » الذي تنصر ، وتولى مكانه و أعاد عبادة الأصنام و دين الصابئين ، وتتبع النصارى يقتلهم ، ومنه هرب الفتية أصحاب الكهف .

تعالى (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا)[1].

وفي الآية جرى تسمية إنامتهم هذه السنين العديدة "آية" ، ومعنى ذلك : أنه أمر خارق للعادة، ولكن كونه كذلك بالإضافة إلى قدرة الله القادرة التي خلقت السماوات والأرض، ليس أمرًا يستدعي التعجب أو الاستغراب من أن يجري الله سبحانه مثل هذا الأمر الممكن في مقاييس العقل .

ومن هذا نرى أن الآية تثبت ما يلي :

أولا: تثبت وقوع الكرامة لهؤلاء الفتية بالخبر القرآني الصادق .

ثانيا: تشير إلى أن مثل هذه الخوارق من الأمور الهينة الممكنة عقلا ، إذا أضيفت إلى قدرة الله تعالى، ثم جاء نقلها بطريق الخبر الصادق ، تقبلتها بقول بالتسليم دون نزاع أو تردد .

ب – كرامات السيدة مريم :

([1]) الكهف (٩– ١٢).

الكرامة الأولى : كان يوجد عندها رزقها في محرابها المنعزل، دون أن يأتيها به إنسان، ودون سبب مادي آخر وهذا من الأمور الخارقة للعادة بالنظر إلى مقتضى الأسباب الكونية المحسوسة .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الكرامة يقول الله تعالى :(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[1].

الكرامة الثانية : حملها بعيسى عليه السلام دون أن يمسها بشر.

وهذا أمر من خوارق العادات في التناسل، ويلاحظ في هذا الخارق : أنه كرامة بالنسبة إلى مريم ، وإرهاص بالنسبة إلى عيسى عليه السلام ..

وقد أثبت القرآن هذه الكرامة في عرض قصتها، فقال تعالى:(قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[2].

([1]) آل عمران (٣٧).

([2]) آل عمران (٤٧).

الكرامة الثالثة : لما أحست مريم بقرب ساعات الوضع، ابتعدت عن أهلها إلى مكان خال في الجهة الشرقية بالنسبة إلى منازل أهلها، وجلست إلى جانب شجرة من أشجار النخيل التي لا تمر فيها،وحصلت لها من المساعدات الربانية في وضعها أمور كثيرة، منها: تساقط الرطب عليها من النخلة غير المثمرة لما هزت جذعها قال الله تعالى:(فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا)[1] .

الكرامة الرابعة: لما وضعت ابنها عيسى عليه السلام حملته وجاءت به إلى قومها، فجعلوا يوجهون إليها الأسئلة المتندرة، ويجرحونها بالاتهامات الساخرة، وهي صامتة لا تحير جواب، وألحوا في استجوابها عن سبب حملها الذي لم يتصوروا فيه على حد تفكيرهم الضيق إلا الفاحشة وهي منها براء، فأشارت إلى ولدها الرضيع ،قال تعالى في حكاية قصتها :

(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا* وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ

([1]) مريم (٢٥).

وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا* وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا* وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)[1].

وكلام عيسى في المهد بالنظر إلى تبرئة أمه كرامة لها، وبالنظر إليه بالذات إرهاص بنبوته.

ج- كرامة آصف صاحب سليمان عليه السلام :

وهي ما كان من قصة إحضار عرش بلقيس – ملكة سبأ في اليمن – من مسافات بعيدة في طرفة عين ؛ إلى سليمان عليه السلام و هو في بيت المقدس، وذلك من قبل أحد المؤمنين الذي عنده علم من الكتاب من أصحابه ، قالوا : واسمه (آصف) وقد نوه القرآن بذلك في قوله تعالى:(قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ* قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ* قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)[2].

([1]) مريم (٢٩-٣٣).

([2]) النمل (٣٨-٤٠).

وبعض المفسرين يجنح إلى أن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه، ويجعل نقل العرش معجزة لسليمان، ولكن الظاهر من حكاية القصة كما وردت في القرآن لا يؤيد ما جنح إليه.

د- كرامة السيدة عائشة رضي الله عنها :

إن نزول الآيات القرآنية ببراءة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها مما اتهمها به أهل الإفك من الكرامات الكبرى لها؛ لأن العادة جرت بأن يعتمد على الأسباب القضائية في الإدانة أو البراءة، أما أن ينزل الوحي بذلك، وينزل به قرآن ، فذلك مما لم تجر به العادات ، فهو كرامة معنوية ذات شأن .

(٢) بعض ما ثبت في الأحاديث النبوية من الكرامات

لقد وردت في الصحاح أحاديث كثيرة عن النبي ، تثبت الكز امات لبعض الصالحين من الأمم السابقة ؛ ونعتقد أن جملة هذه الأحاديث بالنظر إلى كثرتها تثبت بشكل متواتر قطعي وقوع.

وإليك بعض الأمثلة مما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك :

أولا – قصة ثلاثة نفر من الأمم السابقة انطلقوا حتى آواهم المبيت إلى غار ، فانحدرت صخرة كبيرة من الجبل فسدت عليهم مدخل الغار ، فدعوا الله بصالح أعمالهم، فانفرجت الصخرة بقدرة الله بسبب دعواتهم ، وخرجوا يمشون

ثانيا – قصة غلام نشأ في اليمن في عهد ملك من ملوك حمير ، استعبد الناس وحجبهم عن الإيمان بالله ، وقد كان لهذا الملك ساحر، فلما كبر الساحر قال الملك : إني قد كبرت فابعث إلي غلاما أعلمه السحر ، فاختار الملك غلاما وبعث به إليه، وتتلمذ هذا الغلام على الساحر، وأراد الله بالغلام خيرا ، فكان يتصل براهب يأخذ عنه الدين والعبادة ، وكان مكان الراهب بين منزل أهل الغلام و بين مكان الساحر ، وكان يحتال لتبرير تأخره عن الساحر صباحا وعن أهله مساء. ثم تقدم : هذا الغلام في درجات التقوى ، حتى أجرى الله على يديه كرامات كثيرة ، منها : .

ا– اعترضت دابة كبيرة مخيفة طريق الناس فحبستهم عن المسير ، فأخذ حجر فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس ، فرماها فقتلها.

٢- بلغ من أمره أنه أصبح بعد ذلك يدعو الله تعالى للمرضى فيبرىء الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء ، ويتخذ ذلك وسيلة لهداية الناس و دعوتهم إلى الإيمان بالله .

٣- لما رأى الملك أن بعض الناس آمنوا بالله خالق السموات و الأرض حقد عليهم فنشرهم بالمناشير ؛ و تتبع الخبر حتى عرف أن مصدر ذلك هو الغلام الذي دعاه لتعلم السحر ، فدعا الغلام و أمره بالرجوع عن دينه فأبي ، فأمر بعذابه ، فأكرمه الله بكرامات ثلاث :

الكرامة الأولى : أرسله الملك مع نفر من جنوده ليلقوه من ذروة جبل إذا لم يرجع عن دينه ، فدعا الغلام الله تعالى أن يكفيه أمر هؤلاء ، فرجف بهم الجبل ، فهووا صرعى ورجع هو سالما .

الكرامة الثانية:ثم أرسله ثانية مع نفر آخرين ليركبوه في زورق، ويتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا رموه في البحر، فلما توسطوا – البحر به دعا الغلام الله تعالى فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأ الزورق فغرق الجنود ورجع.

الكرامة الثالثة: وأخيرا قال الغلام للملك: إنك لست بقائلي حتى تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع ، ثم تأخذ سهما من كناني ، ثم تضع السهم في كبد القوس ، ثم تقول : باسم الله رب الغلام، ثم ترمي ، فإذا فعلت ذلك قتلني ، فجمع الملك الناس وفعل مثل ما قال له الغلام ، ثم رماه فوقع السهم في صدغ الغلام ، فوضع يده في صدغه فمات ، فلما رأى الناس ذلك قالوا : آمنا برب الغلام.

٤- حقد الملك على الناس الذين آمنوا بالله تعالى ، فأمر بحفر الأخاديد في أفواه السكك ، فحفرت وأضرمت فيها النيران، وأمر أن يلقى فيها كل من لم يرجع عن دينه ، ففعل جنوده ذلك. حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها رضيع ، فتقاعست أن تقع في النار شفقة على طفلها ، فقال لها الرضيع : يا أه اصبري فإنك على حق !! فكان نطق هذا الرضيع كرامة لأمه المؤمنة الصابرة .

ولقد أشار القرآن إلى قصة أصحاب الأخدود في قوله تعالى:(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا

يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[1]

ثالثا : قصة العابد جريج ، وتكلم الصبي الرضيع ببراءته مما اتهم به من الزنى يقول النبي – صلى الله عليه وسلم :(وكان في بني إسرائيل رجل يقال له: جريج، كان يصلي ، فجاءته أمه فدعته، فقال:أجيبها أو أصلي ؟ فقالت: اللهم لا منه حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة فكلمته فأبي، فأتت راعيا فأمكنته من نفسها فولدت غلاما، فقالت: من جريج. فأتوه فكسروا صومعته، وأنزلوه وسبوه ، فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ، فقال : الراعي ، فقالوا : أنبني لك صومعتك من ذهب ؟ فقال : لا ، إلا من طين)[2].

وفي هذا الحديث كرامة ظاهرة لجريج الراهب المتعبد.

(٣) مما ورد في الآثار عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم من الكرامات

أولا – تكثير الطعام لأبي بكر رضي الله عنه:

---

(١) البروج (٤–٨).

(٢) صحيح البخارى رقم الحديث (٢٣٥٠).

فعن عبد الرحمن بن أبي بكر قال : (أن أصحاب الصفة، كانوا أناسا فقراء وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، وإن أربع فخامس أو سادس» وأن أبا بكر جاء بثلاثة، فانطلق النبي صلى الله عليه وسلم بعشرة، قال: فهو أنا وأبي وأمي – فلا أدري قال: وامرأتي وخادم – بيننا وبين بيت أبي بكر، وإن أبا بكر تعشى عند النبي صلى الله عليه وسلم، ثم لبث حيث صليت العشاء، ثم رجع، فلبث حتى تعشى النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء بعد ما مضى من الليل ما شاء الله، قالت له امرأته: وما حبسك عن أضيافك – أو قالت: ضيفك – قال: أوما عشيتيهم؟ قالت: أبوا حتى تجيء، قد عرضوا فأبوا، قال: فذهبت أنا فاختبأت، فقال يا غنثر فجدع وسب، وقال: كلوا لا هنيئا، فقال: والله لا أطعمه أبدا، وايم الله، ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها – قال: يعني حتى شبعوا – وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر فإذا هي كما هي أو أكثر منها، فقال لامرأته: يا أخت بني فراس ما هذا؟ قالت: لا وقرة عيني، لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات، فأكل منها أبو بكر، وقال: إنما كان ذلك من الشيطان – يعني يمينه – ثم أكل

منها لقمة، ثم حملها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأصبحت عنده، وكان بيننا وبين قوم عقد، فمضى الأجل، ففرقنا اثنا عشر رجلا، مع كل رجل منهم أناس، الله أعلم كم مع كل رجل، فأكلوا منها أجمعون، أو كما قال"[1]

ثانيا : ومن كرامات عمر رضي الله عنه ما يلي :

١- عن ابن عمر رضى الله عنهما : (أن عمر بعث جيشا ، وأمر عليهم رجلا يدعى سارية ، فبينما عمر يخطب ، فجعل يصيح : يا ساري الجبل ! فقدم رسول من الجيش فقال : يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزمونا ، فإذا بصائح يصيح : يا ساري الجبل، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل ، فهزمهم الله تعالى)[2]

٢ – الإلهامات الكثيرة التي كان يلهمها . شهد له بذلك الرسول صلى الله علية وسلم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله عل : (إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب).[3]

([1]) صحيح البخارى رقم الحديث (٥٧٧) .

([2]) رواه البيهقي في دلائل النبوة ، ورواه ابن عساكر وغيره بإسناد حسن.

([3]) صحيح البخارى رقم الحديث (٣٢٨٢).

ثالثا: كرامة سفينة مولى رسول الله :

عن ابن المنكدر :(أن سفينة مولى رسول الله عنه أخطأ الجيش بأرض الروم، أو أسر فانطلق هاربا يلتمس الجيش ، فإذا هو بالأسد، فقال : يا أبا الحارث – وهي كنية الأسد – أنا مولى رسول الله علي ، كان من أمري كيت وكيت ، فأقبل الأسد، له بصبصة – البصبصة : تحريك الذنب – حتى قام إلى جنبه ، كلما سمع صوتا أهوى إليه ، ثم أقبل يمشي إلى جنبه حتى بلغ الجيش ، ثم رجع الأسد).[1]

ومما سبق يمكن القول : أن الكرامة من الأمور الثابتة قطعة ، والتي لا يشك بها . مسلم نظر في هذه الأدلة السابقة ، وفي نظائرها .

وأن من ينكرها – من حيث هي – فإنما ينكر شيئا شهدت بإمكانه الأدلة العقلية، وتظاهرت على إثبات وقوعه فعلا الأدلة الشرعية المتواترة من قرآن و سنة ، بلغت في معناها مبلغ التواتر على ما نعتقد، ولا داعي أيضا لإنكار مفردات الكرامات متى ثبتت الحادثة بطريق صحيح

([1]) رواه الحاكم فى مستدركه وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

ولكن الكرامة لا تعني في واقعنا الديني – بالنسبة إلى الشخص الذي جرت على يديه – شيئا زائدة على أنواع الإكرامات الأخرى، التي جرت العادة بأن يكرم الله بها عباده ، فلا ينبغي أن يعلق عليها كبير اهتمام ، إلا في ناحية تثبيت العقيدة بقدرة الله القادر .

فالكرامات حوادث خاصة يكرم الله بها بعض المتقين ، فلا يصح أن تتخذ ذريعة لإثبات أحكام شرعية أو نفيها فالأحكام الشرعية لها مصادرها .كما لا يصح أن تتخذ ذريعة للتفاخر ، أو تحصيل الأموال ، وإلا كانت استدراجا ووبالا على صاحبها .

فالله سبحانه قد يكرم بالمال، وقد يكرم بالجاه، وقد يكرم بالعلم، وقد يكرم ببعض خوارق العادات .

وهذه الإكرامات على اختلاف أنواعها قد تكون وسيلة لتثبيت إيمان من جرت له، وقد تكون امتحان له وابتلاء ، وقد تكون استدراجا له من الله ، فإذا استمر على معصيته بعدها كانت و بالا عليه ونكالا به ، وحجة عليه من الله تعالى ، ولا يصح بحال من الأحوال الاغترار بأصحاب الكرامات إذا لم يكونوا ملتزمين لأحكام الشريعة ، متقيدين بأوامرها ونواهيها .

قال يونس بن عبد الأعلى الصفدي : قلت للشافعي : كان الليث بن سعد يقول : إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة » ! فقال الشافعي : «قصر الليث رحمه الله ، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء ، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة .[1]

المبحث السابع – أخلاَق الداعي

أخلاق الداعي هي أخلاق الإسلام

أخلاق الداعي المسلم هي أخلاق الإسلام التي بينها الله تعالى في قرآنه وفصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته، وانصبغ بها صحابته الكرام في سلوكهم. وهي لازمة لكل مسلم، وما عليه إلا أن يعرض نفسه عليها ليزن نفسه في ميزانه ليعلم ما عنده منها وما لم يصل إليه بعد وقد ذكرنا جملة من هذه الأخلاق في فصل سابق، فارجع إليه إن شئت ونريد هنا أن نذكر بعض تلك الأخلاق الإسلامية التي لها صلة وثيقة بعمل الداعي ويحتاج إليها حاجة ملحة تبلغ حد الضرورة إذا أراد النجاح في عمله الطيب المبرور.

([1]) للمزيد انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها ص (٤١١).

أولاً: الصدق

في كتاب الله تعالى آيات كثيرة تتحدث عن الصدق وفضيلته وتأمر المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين}[1] ، وأنه في يوم القيامة ينفع العبد وينجيه من سخط الله ويؤدي به إلى الجنان {هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم}[2]. وحقيقة الصدق حصول الشيء وتمامه وكمال قوته واجتماع أجزائه. هكذا قال ابن قيم الجوزية في مدارجه. ويكون في القصد والقول والعمل، ومعناه في القصد كمال العزم وقوة الارادة على السير إلى الله وتجاوز العوائق ويكون ذلك بالمبادرة الى أداء ما افترضه الله عليه وفي مقدمته الجهاد في سبيله ومنه الدعوة إلى الله، والصدود عن كل معوق أو مثبط والانصراف عنهم والنفرة منهم لأنهم أناس في غفلة يعيشون ولا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم وهو في حقيقته الجهالة والهوى. والحقيقة أن قلب الصادق شديد الحساسية لا يحتمل هؤلاء المثبطين ولهذا فهو يضيق بهم ولا يستطيع

---

(١) سورة التوبة الآية: ١١٩

(٢)سورة المائدة الآية: ١١٩

مجاورتهم ولا مصاحبتهم ولا مجالستهم. انه ينشرح صدره ويهش لمن يشوقه الى الاسراع في سيره الى الله والدعوة إليه. أما صدق القول، فمعناه نطق اللسان بالحق والصواب فلا ينطق بالباطل اي باطل كان. ويكون الصدق في الاعمال بأن تكون وفق المناهج الشرعية والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا ما تحقق للمسلم الصدق في القول والقصد والعمل أدى به ذلك الى درجة أخرى في الصديقية وهي التي أمر الله عباده المؤمنين بطلبها، موجهاً جل جلاله الخطاب الى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم {وقل ربي ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً} ومعنى مدخل الصدق ومخرجه أن يكون دخول المسلم في أي شيء ومباشرته لأي عمل وخروجه منه وتركه له بالله ولله بمعنى أن أفعاله وتروكه موصولة بالله وموصلة إليه، مستعيناً على أدائها بالله ومقصوده مرضاه الله فغايته هي الله وحده {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين} فاذا بلغ المسلم هذه الدرجة من الصديقية لم يعد في نظره غرض مقبول لرغبته في الحياة إلا إذا كان بقاؤه فيها وسيلة لمرضاة الله فاذا فاته هذا الغرض أو لم يستطع رغب عن الحياة وأحب الموت.

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال "لولا ثلاث لما أحببت البقاء لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر ويريد الإمام عمر بهذه الثلاث التي ذكرها: الجهاد والصلاة والعلم النافع. وكلها ترضي الرب عزّ وجل"[1]

والداعي المسلم الصادق يظهر أثر صدقه في وجهه وصوته فقد كان صلى الله عليه وسلم يتحدث الى من لا يعرفونه فيقولون: والله ما هو بوجه كذاب ولا صوت كذاب. ولا شك أن ظهور أثر الصدق في وجه الداعي وصوته يؤثر في المخاطب ويحمله ذلك على قبول قوله واحترامه إلا إذا كان عمى القلب قد بلغ منه مبلغاً عظيماً. ومهما يكن من أمر فان الصدق والنفاق أساسه الكذب. فكيف يمكن أن يكون الداعي كذاباً؟ والكذب يهدي إلى الفجور كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم، فكيف يمكن أن يكون الفاجر داعياً إلى الله؟

ثانياً: الصبر

الصبر من فروض الإسلام. وهو نصف الإيمان. وذكره القرآن الكريم في أكثر من ثمانين موضعاً أمر به {واستعينوا بالصبر والصلاة} ونهيا عن ضده

(١) مدارج السالكين ج ٢، ص ٢٨١-٢٨٢.

{فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم} ومحبة لأهله {والله يحب الصابرين} ومعيته تعالى لهم {إن الله مع الصابرين} وعاقبته خير {وان تصبروا خير لكم} وجزاؤه عظيم {إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب} وأهل الصبر هم المنتفعون بالآيات والعظات {إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور} وهو سبب لدخول الجنان {سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} وبالصبر اليقين تنال الامامة في الدين {وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون} هذا بعض ما في القرآن الكريم عن الصبر. وفي السنة النبوية آحاديث كثيرة في الصبر، منها "ما أعطي أحد عطاء خيراً له واسع من الصبر" "عجباً لأمر المؤمن، ان أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ان أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن اصابته ضراء صبر فكان خيراً له".

والصبر لغة: الحبس والكف، وشرعاً: هو على ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على المصائب والبلاء.

أما الصبر على طاعة الله، فيكون بالمحافظة عليها دوماً والإخلاص فيها ووقوعها على مقتضى الشرع. ومما يعين على تحصيله المعرفة بالله وحقه على العباد، وحسن الجزاء للمطيعين. واما الصبر على المعصية فيكون بهجر

السيئات والفرار من المعاصي والدوام على هذا الفرار وذلك الهجر ومما يعين على تحصيل هذا الصبر استحضار الخوف من عذاب الله، وأعلى من هذا استحضار الحياء من الله والمحبة له، مع استحضار ثمرة هذا الصبر وهي ابقاء الايمان وتقويته وإنماؤه لأن المعصية تنقص الإيمان أو تضعفه أو تكدره أو تذهب نوره وبهاءه.

أما الصبر على البلاء والمصائب، فيكون بترك التسخط واحتمال المؤلم المكروه وترك الشكوى للناس فإن الصبر الجميل ينافيه الشكوى للمخلوق أما الشكوى لله فلا ينافيه، قال تعالى عن يعقوب عليه السلام: {إنما أشكو بثي وحزني إلى الله} وقال عن أيوب {ربِ إني مسنيَ الضر وأنت أرحم الراحمين} مع قوله تعالى عنه في آية أخرى {إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب} ومما يستدعي هذا الصبر استحضار نعم الله التي لا تعد ولا تحصى فتهون على المصاب مصيبته ويقل وقعها على نفسه ويكون مثله مثل من يعطى ألف دينار ويفقد فلساً واحداً. ومما يعين أيضاً على الصبر على البلاء تذكر الجزاء العظيم للصابرين.

الصبر بالله ولله

والصبر بأنواعه إنما هو بالله بمعنى أن المسلم يؤمن بأن صبره إنما يكون بعون الله، فالله هو المصبر له، قال تعالى: {واصبر وما صبرك إلا بالله} وصبر المسلم لله أي أن المسلم يصبر طاعة ومرضاة له فالباعث على صبره محبة الله وطلب مرضاته وهذا النوع من الصبر وهو يشمل الصبر على الطاعة وعن المعصية أكمل من الصبر على الابتلاء لأن في الأول اختياراً وإيثاراً ومحبة، أما الثاني فهو صبر ضرورة ولا اختيار للصابر.

حاجة الإنسان الى الصبر

الصبر من الصفات اللازمة لكل إنسان، إذ بدونه لا يستطيع بلوغ ما يريد لأن المراد لا ينال غالباً إلا بتحمل المكاره وحبس النفس عليها. وهذا مطرد في جميع أمور الحياة، فالطالب يحبس نفسه على المذاكرة والدرس وكف نفسه عما تهواه من لذة وراحة حتى يستوعب الدروس لينجح في الامتحان، وكذلك التاجر، وكذلك أي صاحب غرض يريد نواله. وما يقال عن الافراد يقال عن الأمم، فالأمة التي تريد بلوغ ما تصبو إليه تحتاج الى صبر عظيم وتحمل للمشاق، والانتصار في الحروب يكون بجانب الذي يملك أسبابه ومن أعظم أسبابه الصبر، فالصبر إذن ضروري لكل إنسان في الحياة وإلا صار هشاً

سريع الانكسار أمام الأحداث وما أكثرها في الحياة، فإنها مملوءة بالمنغصات والمشقات والصعاب والمؤلمات، فاذا لم يقابلها بشيء من الصبر انكسر وتفتت وتمزقت شخصيته في دروب الحياة فتسحقه الاقدام وتلقيه بعيدا عن طريق المارين.

وإذا كان الصبر لأي انسان من لوازم بقائه وسيره في الحياة وبلوغ ما يريد، فان الصبر أشد ضرورة للمسلم من غيره، لأن المسلم مطلوب منه أن يحبس نفسه ويكفّها عن المعصية، وفي المعاصي لذة للنفس يصعب عليها فراقها، فيحتاج الى قدر كبير من ضبط النفس ومن الارادة القوية التي تكف النفس وتمنعها من مقارفة الخطيئة.

ومطلوب من المسلم أيضاً فعل الطاعات وهذا يقتضيه أن يحبس نفسه عليها وهو الصبر على الطاعة، وهو مطالب أيضاً بأن يصبر على المقدر ولا يجزع لئلا يتحمل اثماً ووزراً بالاضافة الى ضياع الأجر والثواب.

ضرورة الصبر إلى المسلم

وإذا كان الصبر ضرورياً لأي انسان، لا سيما للمسلم، فإن الصبر للداعي المسلم أشد ضرورة له من غيره، لأنه يعمل في ميدانين ميدان نفسه، يجاهدها

ويحملها على الطاعة ويمنعها من المعصية وميدان خارج نفسه، وهو ميدان الدعوة الى الله، ومخاطبة الناس في موضوعها، فيحتاج الى قدر كبير من الصبر في المجالين. مجال النفس ومجال الدعوة، حتى يستطيع تجاوز العقبات وتحمل الأذى، فان فقد الصبر قعد أوانسحب من الميدان وحق عليه الحساب وفاته الثواب.

الابتلاء لا بد منه

والابتلاء لا بد منه، فلا بد من الصبر لاجتياز الامتحان بنجاح. قال تعالى: {أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين}.

وقال تعالى: {ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب} قال تعالى: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب} فالإبتلاء من سنة الله في الحياة يبتلي عباده بمن يشاء ومتى يشاء وكيف يشاء ليظهر ما في نفوسهم من إيمان ونفاق وهذا الابتلاء يكون بأشياء كثيرة على رأسها التكاليف الشرعية فهي ابتلاء

وامتحان وقد يكون في تزاحم محبوبات الرب مع محبوبات النفس، فإذا آثر محبوبات الله عزّ وجل على محبوبات النفس، اجتاز هذا الامتحان والا رسب وفشل، وقد يكون الابتلاء في المصائب والآلام التي يصاب بها كالمرض وفقد الأعزة وتلف الأموال، فإذا صبر وسلم واسترجع ولم يجزع أثابه الله ثواب الصابرين، وكان في هذا الامتحان من الناجحين، وإلا كان من الخاسرين.

ابتلاء الدعاة الى الله

وإذا كان الابتلاء مما قضت به سنة الله في الحياة، فإن ابتلاء الدعاة الى الله مما جرت به السنة الالهية أيضاً فهم يبتلون بأذى الكفرة والمارقين بالقول والكيد واليد. قال تعالى: {ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك م نبأ المرسلين} سورة الأنعام الآية: ٣٤، وقال تعالى: {ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} سورة الحجر الآية: ٩٧-٩٩.

وقال تعالى: {فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون}. ومعنى يستخفنك[3]: يحملونك على الخفة والطيش بعدم الصبر، والدعاة إلى الله يكيد

لهم أهل الباطل ويفترون عليهم الكذب ويؤذونهم بأنواع الأذى لانهم قوم يجهلون وضالون. وقد أوذي أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مكة أشد الأذى وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بالصبر "صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة" فعلى الداعي المسلم أن يقابل الأذى الذي يلقاه بالصبر الجميل، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام ومن قبلهم رسل الله، فان هذا الصبر مما ينعقد عليه عزم المؤمنين وتتوجه إليه إرادتهم {واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور} وقال تعالى: {لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور}.

استدعاء البلاء ودفعه

وإذا كان البلاء والابتلاء مما يصيب الدعاة إلى الله، وبهذا جرت سنة الله، فهل معنى ذلك أن على الداعي المسلم أن يستدعي البلاء ويعمل على وقوعه ولا يجوز له دفعه؟ في المسألة تفسير وتوضيح لأن هذه المسألة مما يقع فيها الاشتباه والخلط بسبب سوء الفهم لا بسبب سوء النية والقصد. ولتوضيح هذه المسألة أذكر ما يأتي:

أولاً: المطلوب من الداعي المسلم أن يدعوالى الله على بصيرة بالوسائل والكيفيات المشروعة التي بينها القرآن الكريم وطبقها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فاذا أدت هذه الوسائل الى أذى يصيب الداعي فعليه أن يتقبله بالصبر لا بالجزع، وبالثبات لا بالفرار.

ثانياً: إذا كان للداعي المسلم مندوحة من الأذى، أي يستطيع أن يتوقاه ولا يجب عليه أن يقابله، فله أو عليه أن يتوقاه حسب الظروف والأحوال، فقد يباح له الابتعاد عنه وعدم مباشرة ما يستدعيه وقد يجب عليه الابتعاد وعدم مباشرة ما يستدعيه لأن الابتلاء صعب على النفس فلا يجوز الحرص عليه ولا الرغبة فيه لأن فيه فتنة مجولة العاقبة. وقد يحس المسلم من نفسه القدرة على الثبات ومن ثم لا يبالي بالابتلاء بل ربما رغب فيه إما طمعاً بثواب الله، وإما لتدخل وسوسة الشيطان ليقال عنه: ما أثبته وما أصبره على البلاء، فاذا نزل البلاء، ضعف عن الاحتمال ووقع في الافتتان ورسب في الامتحان كما روي عن أحدهم انه قال: يا رب امتحني بما شئت فأنا راض بقدرك صابر على ابتلائك، فابتلاه الله باحتباس البول، فأخذ يصيح ويولول ويطوف على الاولاد ويقول لهم: ارموا عمكم الكذاب بالحجارة.

ثالثاً: لا ينبغي للمسلم أن يتعرض لما لا يطيقه من البلاء، فيرسب في الامتحان، جاء في الحديث الشريف "لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه قالوا وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال يتحمل من البلاء ما لا يطيق"[4].

رابعاً: من الأدعية المأثورة أن يسأل المسلم ربه العفو والعافية.

والعافية يدخل فيها المعافاة من الابتلاء والمؤذيات وهذا يدل على أن التخلص والخلاص من أذى أهل الباطل ممدوح ومحود غير مذموم.

خامساً: وفي وصيته عليه الصلاة والسلام لأسامة بن زيد وقد جعله أميراً على الجيش لغزو الروم قبل وفاته عليه الصلاة والسلام بأيام، قال له "ولا تمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم، ولكن قولوا اللهم اكفناهم وأكفف بأسهم"[5].

وقال ربنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: {وكفى الله المؤمنين القتال} وهذا يشعر بأن عدم احتياج المؤمنين للقتال لكفاية الله تعالى يعتبر من نعمة الله على المؤمنين، والقتال فيه أذى ونصب وألم فلو كان تعريض المسلم نفسه للابتلاء والأذى مطلوباً لذاته لما كان عدم الاحتياج اليه مما يمن الله به على المؤمنين.

سادساً: ايذاء أهل الباطل للمؤمنين غير مطلوب قطعاً بل هو من سيئات أهل الباطل، لأنه ايذاء لأهل الحق، فكيف يسوغ تسليم المسلم نفسه للمبطل يؤذيه ويهينه ويذله؟ ألا يكون في هذا التسليم اعانة على وقوع ما يسخط الله تعالى، والقاء للنفس في التهلكة والمهانة والذلة؟ وكل هذا لا يجوز.

سابعاً: أذِن الله للمكره أن يقول كلمة الكفر تخليصاً لنفسه من الأذى والتلف وهذا يدل على إباحة دفع الأذى وأن للمسلم أن لا يساعد على وقوعه عليه.

ثامناً: عند انسحاب خالد بن الوليد بمن معه من جند المسلمين في معركة مؤتة ودخولهم المدينة المنورة، جعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فرار، فررتم في سبيل الله، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى" ووجه الدلالة في هذا الخبر أن خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين انسحبوا من ملاقاة العدو تخلصاً من الأذى والضرر. فعابهم المسلمون في المدينة ووصفوهم بالفرار، ولكن سيد العارفين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نظر إلى غير ما ينظرون ورأى في انسحابهم الناجح نوعاً من النصر لتخلصهم من القتل ومن أذى المشركين واحتمال أسرهم وأن انسحابهم كتحول الجند في ساحة المعركة من جهة أخرى.

فدل ذلك على أن دفع البلا ء أمر مطلوب إذا أمكن المسلم دفعه وان تسليم المسلم نفسه للأذى والضرر حيث يمكنه الخلاص ليس بالأمر الممدوح بل ولا المشروع.

تاسعاً: هاجر المسلمون من مكة الى الحبشة فراراً بدينهم وتخلصاً من أذى قريش. فدل ذلك على جواز دفع البلاء والأذى وعدم الاستسلام له بحجة تحمل الأذى في سبيل الله. لأن نفس المسلم ليست ملكه وإنما هي ملك الله، فلا يجوز اتلافها بلا فائدة تعود الى الإسلام، وليس من الفائدة أن يقول الناس: ما أثبت هذا الداعي واجرأه على تحمل الأذى في سبيل الله. بل قد يكون تحمل الأذى بهذا الدافع ولهذا الغرض رياء وطلباً للسمعة والجاه عند الناس، وهذا لا يجوز.

عاشراً: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير بأساً من عون عمه أبي طالب وكان على دين قومه في دفع ما يستطيعه من أذى قريش عنه ولما ماتت خديجة وعمه في عام واحد سماه "عام الحزن" وقال "ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب" لأنه لم يكن في عشيرته وأعمامه حامٍ له، ولا ذاب عنه غيره

وعندما رجع عليه الصلاة والسلام من الطائف وانتهى الى حراء بعث رجلا من خزاعة الى المطعم بن عدي ليجيره حتى يبلغ رسالة ربه، فأجاره، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فأقام بها وجعل يدعو الى الله

وجه الدلالة في هذه الآثار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي بحماية عمه أبي طالب له ودفعه الأذى عنه. وكذلك دخوله عليه الصلاة والسلام بجوار المطعمِ، فدل ذلك على جواز دفع البلاء والأذى عن الداعي ولو عن طريق حماية المشرك وعدم استحباب تسليم المسلم نفسه لأهل الباطل. وكذلك فعل أصحاب رسول الله الذين هاجروا الى الحبشة فعندما رجعوا الى مكة "لم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو متخفياً"[8]، ويجب أن يعلم هنا أن الداعي المسلم في رغبته وسعيه لدفع الأذى عن نفسه إنما يقصد التمكين وإيجاد الجو المناسب لدعوته الى الله، يوضح ذلك ما جاء في السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج الى القبائل أيام الموسم ويدعوها الى الإسلام ويقول "من رجل يحملني الى قومه فيمنعني حتى أبلغ رسالة ربي، فانَ قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي"

خلاصة القول في استدعاء البلاء ودفعه :

ومن هذا العرض الذي قدمته والنصوص التي ذكرتها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والسوابق القديمة في سيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام وهم أفقه المسلمين بشريعة الإسلام، يتبين لنا بكل وضوح ما يأتي:

أولاً: الأذى أوالضرر الذي يلحق الداعي المسلم هو بمنزلة الأمراض والمصائب التي تنزل على الانسان، فكما انه لا يحبها ولا يرغب فيها ولا يريد ايقاعها على نفسه، ولا يقدح ذلك في ايمانه، فكذلك لا يقدح في ايمانه عدم محبته ولا رغبته في وقوع أذى أهل الباطل عليه وعدم استدعاء الضرر على نفسه.

ثانياً: إن احتمال وقوع الأذى والضرر به لا يقعد به عن دعوته الى الله، ولكن الداعي لا يستدعي الأذى لنفسه. بل يعمل على عدم وقوعه وإذا وقع عمل على دفعه بكل وسيلة مشروعة في ضوء ما جاء في القرآن والسنة.

ثالثاً: إذا وقع الضرر والأذى على الداعي المسلم بالرغم من التزامه بالسير المشروع في الدعوة الى الله فعليه أن يستعين بالله ويصبر الصبر الجميل وليعلم أن الأمور كلها بيد الله تعالى وإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثالثاً: الرحمة

من أخلاق الداعي الضرورية: الرحمة، وقبل أن أبين أهميتها للداعي، أذكر ما ورد في السنة النبوية.

قال صلى الله عليه وسلم: "لا يُرحم من لا يرحم الناس" "لا تنزع الرحمة إلا من شقي" "الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" "قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي رضي الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس. فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال من لا يَرحم لا يُرحم" "دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض".

ومن صفات وأخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم، رحمته وشفقته على أمته قال تعالى: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم}. ومن شفقته صلى الله عليه وسلم دلالته لأمته على ما يبعدهم عن النار وقد مثل ذلك بمثل بليغ، قال صلى الله عليه وسلم: "إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم وانتم تقتحمون فيه".

ضرورة الرحمة للداعي

إن الداعي لا بد أن يكون ذا قلب ينبض بالرحمة والشفقة على الناس وإرادة الخير لهم والنصح لهم. ومن شفقته عليهم دعوتهم الى الإسلام، لأن في هذه الدعوة نجاتهم من النار وفوزهم برضوان الله تعالى. أن يحب لهم ما يحب لنفسه وأعظم ما يحبه لنفسه الإيمان والهدى، فهو يحب ذلك إليهم أيضاً. إن الوالد من شفقته على أولاده يحرص على إبعادهم عن الهلكة ويتعب نفسه في سبيل ذلك، وأية هلكة أعظم من الضلال والتمرد على الله؟ والداعي بدعوته إنما يسعى لتخليص المتمردين العصاة من الهلاك المحقق والخسران المبين.

إن الداعي الرحيم لا يكف عن دعوته ولا يسأم من الرد والإعراض لأنه يعلم خطورة عاقبة المعرضين العصاة، وان إعراضهم بسبب جهلهم، فهو لا ينفك عن إقناعهم وإرشادهم، وقد ذكرنا في شفقة رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الذي ضربه لنفسه الكريمة مع أمته، وهكذا كان الأنبياء رحماء بمن أرسلوا إليهم مشفقون عليهم من العذاب، قال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام {لقد أرسلنا نوحاً الى قومه يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} سورة الأعراف الآية: ٥٦ فقوله عليه السلام {إني

أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} لا يصدر إلا عن قلب رحيم وشفقة ظاهرة عليهم وكذلك قوله عليه السلام، وقد رموه بالضلالة {يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم واعلم من الله ما لا تعلمون. أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون} سورة الأعراف الآية: ٦١-٦٣. فجواب نوح عليه السلام مشحون بالرحمة والشفقة عليهم واللطف في مخاطبتهم، ولم يغضبه كلامهم لأنهم قوم يجهلون ولأن الداعي الرحيم لا يغضب لنفسه قط. وهكذا كان خلق رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فما كان يغضب لنفسه، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله. ثم في جواب نوح أنه ينصح لهم، أي يخلص في القول النافع المفيد لهم، بالرغم من قولهم الباطل فيه ويبين لهم أنه رسول من رب العالمين ليعلموا أن ما يخبرهم به هو الحق الصريح الواجب قبوله، وفي قبوله رحمة بهم، دليل على ما كان في قلبه عليه السلام من عظيم الرحمة بقومه.

الرحمة تهون على الداعي على ما يلقاه من الجهلاء.

والرحمة تهون على الداعي ما يلقاه من أصحاب الغفلة والجهالة، لأنه ينظر إليهم من مستوى عالٍ رفيع أوصله إليه إيمانه وصلته بربه، ولذا فهو ينظر

إليهم كصغار يعبثون والشأن في الصغار الأطفال العبث والجهل وعدم إدراك ما ينفعهم ولذلك لا يعجب الداعي من مقابلة نصحه لهم بالإعراض والصدود والأذى كما يفعل الطفل إذا نصحته أو أبعدته مثلا عن مس النار و الشيء المؤذي فانه يصيح ويغضب وربما آذاك. إن الداعي لا يعجب من صدودهم كما قلت، ولذلك فهو يعيد الكرة معهم، ويتحمل أذاهم ويدعو لهم بالهداية وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرر دعوته الى قريش ويتحمل أذاهم ويقول "اللهم أهد قومي فانهم لا يعلمون". إن الإنسان ذا القلب الرحيم لا يستكثر على الصغير أن يصدر منه الصدود عن الناصح والأذى له لأنه جاهل ومن ثم يشفق عليه ذو القلب الرحيم ولا يؤاخذه على إساءته إليه، قال تعالى: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}.

الرحمة تثمر العفو والصفح

وما دام الداعي المسلم ينظر الى من يدعوهم نظرة الرحمة والشفقة عليهم فانه يعفو ويصفح عنهم في حق نفسه قال تعالى: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} وإذا كان هذا هو شأن الداعي المسلم بالنسبة لمن يدعوهم

ويحتمل صدور الأذى منهم فان عفو الداعي وصفحه عن أصحابه أوسع قال تعالى: {فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر}.

الفظاظة تؤدي إلى انفضاض الناس

والداعي المحروم من الرحمة الغليظ القلب لا ينجح في عمله ولا يقبل الناس عليه وإن كان ما يقوله حقاً وصدقاً. هذه هي طبيعة الناس ينفرون من الغيظ الخشن القاسي ولا يقبلون قوله لأن قبول القول الناصح يستلزم إقبال قلب المنصوح إليه ولا يحصل هذا الإقبال مع خشونة الطبع وغلظة القلب قال تعالى: {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك} فإذا كان هذا يمكن أن يقع بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو حصل ما ذكرته الآية الكريمة، والرسول لا ينطق إلا بالحق ومؤيد بالحق، فكيف يمكن تصور تخلف الانفضاض عن الداعي إذا كان فظاً غليظ القلب؟

فليتق ربهم الدعاة الى الله، وليتكلفوا الرحمة والرفق إن لم يكونوا رحماء حتى يكتسبوها ويألفوها، ولا يكونوا منفردين عن الإسلام بسوء أخلاقهم وغلظة قلوبهم وخشونة طبعهم وبذاءة كلامهم، فان عجزوا عن اكتساب الرحمة وحمل نفوسهم

على أخلاق الإسلام فمن الخير لهم وللدعوة ترك الدعوة والانصراف الى علاج نفوسهم.

رابعاً: التواضع

التكبر حماقة وجهل ودليل قاطع على جهل المتكبر بربه وبنفسه، فلو عرف ربه لعلم أن الكبرياء لله وحده قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عزّ وجل "العز إزاري والكبرياء ردائي فمن ينازعني في واحد منهما فقد عذبته" ولو عرف المتكبر نفسه وان أوله نطفة قذرة وآخره جيفة قذرة لخجل من نفسه ووقف عند حده قال محمد بن الحسين بن علي كما ذكر صاحب "الاحياء": ما دخل قلب امرئ شيء من التكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أوكثر.

جزاء المتكبرين

من جزاء المتكبر حرمانه من الاتعاظ والانتفاع بآيات الله لأن تكبره يمنعه من الانصياع للحق، فيطبع الله على قلبه ويصرفه عن آياته، ونتيجته الخيبة والفشل وسخط الله تعالى، ودخول جهنم داخراً، وفقده ما يناله المتواضعون لربهم من نعيم الآخرة وبهذه المعاني نطق القرآن والسنة النبوية، قال تعالى:

{سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق} {كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار} {واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد} {إنه لا يحب المستكبرين} {إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} {تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين}.

وفي السنة النبوية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم" ومعنى يذهب بنفسه يرتفع ويتكبر. وقال عليه الصلاة والسلام "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر". ألا أخبركم بأهل النار: "كل عتلٍ جوّاظ مستكبر".

النهي عن الكبر

وما ذكرناه من نصوص كلها تتضمن النهي عن الكبر، وقد جاءت نصوص أخرى فيها النهي الصريح عن التكبر منها قوله تعالى: {ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور}.

حقيقة الكبر

جاء في الحديث الشريف الذي رواه مسلم في صحيحه "الكبر بطر الحق وغمط الناس" أي ردّ الحق واحتقار الناس. فحقيقة الكبر استعظام المتكبر نفسه واستصغار قدر غيره فيدفعه ذلك الى رذائل ومهلكات.

فالمتكبر يرد الحق ولا يقبله ولا يذعن إليه قال تعالى: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً}. ولا يعترف بخطئه ولا تقصيره ولا سوء عمله لأنه معجب بنفسه، وفي الحديث الشريف: "ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه".

والمتكبر يحتقر الناس ولا يرى لهم قدراً ويستنكف أن يسألهم عما يجهله ولا يقبل تعليم من يعلمه، ولا يقبل نصيحة ناصح، لأنه لا يراه شيئاً ويرى أن على الناس أن يلهجوا بالثناء عليه. يأنف من مجالستهم ومحادثتهم، يرى أنه هو الناجي وهم الهلكى. إلى غير ذلك من آثار الكبر وافعال المتكبرين.

سبب الكبر

وسبب الكبر عجب الإنسان بنفسه لعلمه أو ماله أو جاهه أو حسبه أو نسبه أو سلطانه وغير ذلك مما يدعو إلى الإعجاب بالنفس ناسياً هذا المعجب أن الله

تعالى هو المنعم بهذه الأشياء وان لو شاء لسلبها منه، فيؤدي به هذا الإعجاب إلى استعظام نفسه ورؤية قدره فوق أقدار الناس فيحتقرهم ويزدريهم.

علاج الكبر

وعلاج هذا الداء العضال الصعب – الكبر – واكتساب حقيقة التواضع، يكون بالمعرفة اليقينية: معرفة المتكبر لربه ولنفسه. فيعرف أن الكبرياء هي لله وحده حصراً ولا يجوز مطلقاً لأي إنسان أن يسمح لذرة من الكبر أن تتسرب إلى قلبه فإنها جرثومة خطرة فتاكة كثيرة التوالد تطمس نور الإيمان وتكدر الأعمال وتحبطها. وان يعرف المتكبر قدر نفسه فهو نشأ من نطفة قذرة ثم يصير جيفة قذرة، وان كل ما عنده من علم ومال وجاه وسلطان هو محض عطاء الله له، وان لو شاء الله لسلبه ذلك كله، وان ليس له من نفسه إلا العدم. ثم يأتي المتكبر على أسباب إعجابه بنفسه ثم الى تكبره، سبباً سبباً، فينقضه. فالعلم الذي عنده قليل جداً بالنسبة إلى ما يجهله {وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} وهناك من هو أعلم منه {وفوق كل ذي علم عليم} فلم العجب والكبرياء؟ وان العلم الحقيقي هو الذي يثمر المعرفة بالرب جل جلاله، ويحجز النفس عن الرذائل والحماقات مثل الكبر، ويروضها على الفضائل مثل التواضع. أما العبادة التي يقوم بها

المتكبر والتقوى والورع فلا تصلح سبباً للإعجاب بالنفس والتكبر على الخلق. فما يدري هذا المسكين أن عبادته مقبولة وانه من الصالحين عند الله وخاتمته مجهولة وتزكية النفس ممنوعة {فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى}. والعبادة هي حق الله على العبد ولا يحق للعبد أن يمن بها على الله ولا أن يتكبر على الغير لقيامه بما هو حق الله عليه، والله هو الذي مكنه منها وهداه إليها {وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله} وأي تقوى هذه التي لا تقي صاحبها من منازعة الله حقه الخالص في الكبرياء، ولا تعصم صاحبها من التمرغ في رذيلة أخرجت ابليس من ملكوت السماوات وجعلته طريداً ملعوناً إلى يوم الدين؟ يوم امتنع عن السجود لآدم تكبراً منه عليه وإعجابا بنفسه حيث قال {أنا خير منه}. وهكذا القول في المال والسلطان والجاه وقوة الأنصار والإتباع والتعزز بالاحساب والأنساب فكلها من الأباطيل وإيحاءات من الشيطان الرجيم. فالمال غاد ورائح، والسلطان لا يبقى فالايام دول والجاه مثله. وقوة الأنصار والأتباع لا تغني من الله شيئاً {يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً} والتعزز بالاحساب والأنساب يعني تشبث وتعزز بعظام بالية ان بقيت العظام!! وما يغني الآباء الصالحون عن الأبناء الطالحين {ونادى نوح

ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت خير الحاكمين. قال يا نوح إنه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم اني أعظك أن تكون من الجاهلين. قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وألا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين}.

التواضع

وإذ قد بينا الكبر وأسبابه وبعض عواقبه وآثاره، ظهرت لنا حقيقة التواضع، فهو ضد الكبر وهو ثمرة المعرفة بالله وبالنفس فلا يمكن أبداً أن يتكبر ولا يتواضع إنسان عرف ربه وعرف قدر نفسه، وعلى هذا فاذا كان المتكبر جاهلا بربه فالمتواضع عارف بربه، وإذا كان المتكبر محتقراً غيره يراهم كالذباب وكالعبيد فإن المتواضع يفقه جيداً قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه "لا يحتقرن أحد أحداً من المسلمين فان صغير المسلمين عند الله كبير". وإذا كان المتكبر يستنكف عن مجالسة الصالحين والفقراء والضعفاء بالرغم من أن أحدهم يعدل ملء الأرض من أمثاله فان المتواضع يفقه جيداً معنى قوله تعالى {واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم} وقد قال المفسرون في أسباب نزولها ان قريشاً قالت للرسول

صلى الله عليه وسلم: إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء من ضعفاء المسلمين مثل صهيب وعمار وبلال وخباب فاطردهم عنك ولا تبقهم في مجلسك إذا دخلنا عليك، فاذا فرغنا وخرجنا فأدخلهم إن شئت. فأنزل تعالى هذه الآية واتبعها بآية عن أولئك المتكبرين المتعجرفين الذين طلبوا طرد الضعفاء من مجلس رسول الله فقال تعالى عنهم: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً}[13]. ويفقه المتواضع جيداً معنى قول الله تعالى: {واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين} وإذا كان المتكبر يجحد الحق ويرده ولا يذعن له فان المسلم المتواضع يفقه جيداً معنى قول العارف المتواضع الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى وقد سئل عن التواضع فقال: التواضع أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من أجهل الناس قبلته.

حاجة الداعي الى التواضع

والداعي الى الله أحوج من غيره الى خلق التواضع، فهو يخالط الناس ويدعوهم الى الحق والى أخلاق الإسلام فكيف يكون عارياً من التواضع، وهو من ركائز أخلاق الإسلام؟ ثم إن من طبيعة الناس التي جبلهم الله عليها انهم لا يقبلون قول من يستطيل عليهم ويحتقرهم ويستصغرهم ويتكبر عليهم، وان كان

ما يقوله حقاً وصدقاً، هكذا جبلت طبائع الناس فانهم ينفرون عن المتكبر ويغلقون قلوبهم دون كلامه ووعظه وارشاده. فلا يصل اليها من قوله شيء بل قد يكون ذلك سبباً الى كرههم الحق منه ومن غيره. فعلى الداعي أن يفقه هذا الأمر جيداً وليتق الله ربه ولا يكون سبباً لنفرة الناس من الدعوة إلى الله. ونزيد هنا شيئاً آخر له علاقة بالموضوع وله أهميته البالغة ذلك أن من طبائع الناس أنهم لا يحبون من يكثر الحديث عن نفسه ويكثر الثناء عليها ويكثر من قول أنا، أنا، ولهذا فعلى الداعي أن يحذر ذلك وأن لا يدعي شيئاً يدل على تعاليه كأن ينسب الى نفسه المزيد من العلم أو الفصاحة أو المعرفة. إن على الداعي أن يعرف أن جميع ما عنده هو محض فضل الله عليه فليتحدث الى الناس وهو بهذا اليقين وبهذا الشعور يتحدث اليهم بفضل الله لا بفضل نفسه فاذا عرف الناس منه ذلك فتحوا له قلوبهم أو على الأقل لم يغلقوها دون كلامه فيقع فيها من معانيه الطيبة النافعة ما يشاء الله وقوعه، والله المستعان.

ومن التواضع العظيم الذي قد يغفل عنه الداعي وهو مهم وضروري طاعة من أمره الشرع بطاعته كالأمير ومن يتولى شؤونه أو تعليمه، وأن لا يستنكف عن هذه الطاعة ولا يحس منها بغضاضة ولا يمنعه منها كبر خفي في نفسه

فيرفضها ويستثقلها أو يتهرب منها بتأويلات فاسدة هي في حقيقتها من ايحاءات الشيطان كأن يقول: هذا الأمير أو المعلم غير صالح ولا كفء أو صغير أو أنا أعلم منه وأكفأ أو هذا المعلم لا يصلح أو المعلم غير صالح ولا كفء أو صغير أو أنا أعلم منه وأكفأ أو هذا المعلم لا يصلح للتعليم ونحو ذلك، وليتذكر جيداً تأمير رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد وكان شاباً على جيش كان فيه سادات المهاجرين والأنصار ومشايخهم وكبارهم، قال صاحب امتاع الأسماع في هذه الحادثة: "ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم – يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صفر – أسامة بن زيد، قال: يا أسامة، سر على اسم الله وبركته حتى تنتهي الى موت أبيك فأوطئهم الخيل، وقد وليتك هذا الجيش... فلما كان يوم الأربعاء ابتدأ مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فصدع وحم. وعقد يوم الخميس لأسامة لواء بيده وقال: يا أسامة، اغز باسم الله في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا تتمنوا لقاء العدو، فانكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم، ولكنكم قولوا اللهم اكفناهم، واكفف بأسهم عنا فان لقوكم قد أجلبوا وضجوا فعليكم بالسكينة والصمت ولا تنازعوا فتفشلوا فتذهب ريحكم، وقولوا اللهم إنا عبادك نواصينا ونواصيهم بيدك،

وإنما تغلبهم أنت واعلموا أن الجنة تحت البارقة" ثم يذكر صاحب امتاع الاسماع أن بعض الناس تكلموا عن تأمير أسامة على الجيش باعتباره شاباً لا خبرة له وإن هذا الجيش يضم المهاجرين والأنصار وان عمر بن الخطاب رد على هذا الكلام على من تكلم به وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الذي قاله البعض، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب لذلك غضباً شديداً وأنه عليه الصلاة والسلام خرج وقد عصب على رأسه عصابة ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال"أما بعد أيها الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري اسامة؟ والله لئن قلتم في أمارته لقد قلتم في أمارة أبيه من قبله وأنه لخليق للإمارة وان كان أبوه لخليقاً لها". وقد ذكرت معظم ما ورد في قصة تأمير أسامة لما في هذا من دلالات وعبر وعظات وأحكام، وأخيراً فان الداعي الفقيه يزداد تواضعاً لله تعالى كلما وفق في دعوته ونجح في مساعيه ونصره الله على اعدائه. وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد دخل مكة فاتحاً وهو منكس الرأس تواضعاً لربه واعترافاً له بفضله.

خامساً: المخالطة والعزلة

أيهما أفضل المخالطة أم العزلة؟

أيهما أفضل للمسلم المخالطة مع الناس أم العزلة عنهم؟ قال بعضهم العزلة أفضل، وقال أكثرهم: المخالطة أفضل، والصواب أن يقال: الأفضل للمسلم أحبهما الى الله تعالى، فاذا كانت المخالطة أحب الى الله بالنسبة لهذا المسلم نظراً لظروف حاله ومكانه وزمانه، فهي أفضل في حقه، وإذا كانت العزلة بالنسبة إليه أحب الى الله لظروف حاله وزمانه ومكانه فالعزلة أفضل في حقه.

المخالطة لا بد منها :

والمخالطة لا بد منها فان الإنسان اجتماعي بطبعه لا يستطيع العيش بمفرده ولو استطاعه لكان أمراً شاذاً لا يستطيع جميع الناس متابعته عليه. هذا في أمور الدنيا وحوائجها أما بالنسبة لأمور الدين فكذلك الحال فان من فرائض الإسلام ومستحباته ما لا يمكن تأديته إلا بالمخالطة مع الناس وتعاونهم، مثل

صلاة الجمعة والعيدين، وتشييع الجنائز وعيادة المرضى وتعلم أمور الدين وتعليمها إلى غير ذلك من المطلوبات التي تستلزم المخالطة.

المخالطة واجبة على الداعي

الدعوة الى الله من وجائب الإسلام ومن وسائلها مخالطة الناس فتكون المخالطة واجبة لأن ما لا يؤدي الواجب إلا به فهو واجب، والواقع أن طبيعة الإسلام تقتضي المخالطة، فالإسلام ليس معنى خاصاً بالفرد بل هو أيضاً عمل المسلم خارج نفسه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أن أكرمه الله بالنبوة وأمره بالتبليغ عاش مع الناس وخالطهم وغشي مجالسهم يدعوهم الى الله ويحذرهم مما هم فيه وكذلك فعل أصحابه الكرام خالطوا الناس وبثوا فيهم ما تعلموه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم والدين. وما روي عن بعض التابعين من استحباب العزلة وكراهية المخالطة فهو أمر يتعلق بأحوال طارئة وظروف استثنائية فليس ما ذكروه هو القاعدة التي يستهدي بها المسلمون من بعدهم لأن وجوب الدعوة الى الله أمر ثابت في الشرع، والمخالطة هي المقدمة الى الدعوة. فلا يمكن التخلي عنها. بل إن هذا الوجوب أصبح أشد في زماننا من أي زمان مضى، لما غشي البشر من غاشية رهيبة

قاسية من المادية الصماء السوداء التي حجبت عنهم أنوار الحق وقطعت صلاتهم بالله عز وجل، مما جعل لزاماً على كل مسلم أن يسهم في الدعوة الى الله بقدر طاقته وبأي نوع من أنواع القدرة يستطيعه وهذا يستلزم مخالطة الناس ليدعوهم الى الله.

حدود المخالطة الواجبة

والمخالطة الواجبة هي ما كانت ضرورية لأعمال الدعوة إلى الله تعالى أو أداء فروض الإسلام الأخرى، فإذا خلت من هذا المقصود، زالت عنها صفة الوجوب وصارت مباحة أو مكروهة أو حراماً، فالمباحة كالمخالطة لغرض تحصيل مباح دنيوي والمكروهة إذا فوتت على الداعي فائدة أخروية إذا حمّلته إثما. وعلى هذا فان المأمول من الداعي أن تكون مخالطته كلها بدافع من الدعوة الى الله، فإذا زار شخصاً أو تعارف معه أو صادقه أو رافقه أو آخاه أو غشي مجلساً أو تكلم في جمع فانه يصدر عن رغبة في الدعوة إلى الله أو بالأعداد والتهيئة لها.

الحب في الله والبغض في الله

والداعي في مخالطته للناس يقيم علاقاته معهم على أساس الحب في الله والبغض في الله. والمقصود بهذه العبارة أن المسلم لا يحب الشخص إلا لطاعته لربه ومسارعته الى مرضاته، ولا يبغضه إلا لعصيانه ومخالفته أمر ربه وكلما اشتدت محبة المسلم لربه اشتدت محبته لأحباب الله حتى تصير موالاة ونصرة وذبا عنهم بالنفس والمال وليس هذا الذي نقوله خيالا أو مبالغة فان من أحب انساناً أحب من يحبه محبوبه، ومن يحب محبوبه يقوم بخدمته ويثني عليه، فإذا كان هذا معروفاً بين الناس فالشأن أعظم في مسألة محبة المسلم لربه وآثارها في محبة احباب الله وأوليائه. وإذا اجتمع في الشخص طاعات وسيئات أحبه المسلم لطاعته وأبغضه لسيئاته.

المختارون لصحبة الداعي:

وما دام الداعي يحب في الله ويبغض في الله فمن البديهي أنه يختار لصحبته ورفقته وأخوته، المطيعين لله القائمين بحق العبودية لله، فهم نعم الرفيق له ونعم الإخوة له، يشتد ارتباطه بهم، ويعتز بهم ويحافظ على أخوتهم، ويرفض مصاحبة ومواددة العصاة والفساق المعرضين عن أوامر ربهم قال تعالى: {فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا} وهو إذ يرفض

مصاحبة ومخالطة العصاة والفساق لا ينفك عن دعوتهم الى الله والدعاء لهم بالهداية والرحمة والرشاد.

سلوك الداعي مع من يصاحب ومن لا يصاحب

والداعي يعرف حقوق الصحبة ويحمل نفسه على الوفاء بهذه الحقوق ومنها مواساته لأصحابه وقضاء حوائجهم وسكوته عن عيوبهم فالإنسان لا يخلو من عيب، إلا إذا وجب عليه النطق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتحمل إساءتهم في حق نفسه، ويقبل أعذارهم، فالمؤمن الكريم يحضر في نفسه محاسن أخيه، والمنافق اللئيم يحضر في نفسه معايب أخيه، قال عبدالله بن المبارك رحمه الله تعالى: "المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات".

٤١٤- أما سلوكه مع من لا يصاحبه ولا يرافقه لفسقه وعصيانه، فهو سلوك المؤمن: فلا يخاصمهم {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً} ولكن ينصحهم ويعظهم، وقد يضطر الى هجرهم ومقاطعتهم إذا كانت معصيتهم تقتضي الهجر والمقاطعة، كما لو كانوا يدعون الى بدعة في الدين، أو يفرقون صفوف المسلمين أو يكيدون لهم أو يعملون لإلحاق الأذى بهم، أو يسعون لظلمهم والبغي عليهم، فإنه في هذه الحالة وبعد الأعذار لهم وإفراغ الجهد في نصحهم،

إذا لم يكفوا عما هم فيه، يضطر الى هجرهم ومقاطعتهم وعدم الكلام معهم زجراً لهم عن بغيهم وكيدهم وعدوانهم وبدعتهم حتى يتحاشاهم الناس ويعرفونهم فيحذروهم، بل وللداعي ان لا يرد عليهم السلام إذا سلّموا، إمعانا في زجرهم وإظهارا لإنكار عملهم، ويعلل الامام الغزالي عدم رد السلام عليهم مع أن ردّه واجب بقوله "ورد السلام وان كان واجباً فانه يسقط بأدنى غرض فيه مصلحة، حتى يسقط بكون الانسان في الحمام وقضاء حاجته، وغرض الزجر أهم من هذه الأغراض لأن فيه زجراً وتنفيراً عنه"

عزلة الداعي

وإذا كانت المخالطة من مقدمات الدعوة الى الله تعالى، وان الداعي لا يستغني عنها كما قلنا فانه مع ذلك يحتاج الى شيء من العزلة والوحدة والانفراد بنفسه لأنه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "لا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه واصلاح قلبه" ويلاحظ في هذه العزلة شيئان:

الأول: أن تكون في الأوقات التي ندب الشرع فيه الى نوع معين من العبادة كالاعتكاف في رمضان وقيام الليل والصلاة فيه والجلوس في المساجد انتظاراً

للصلاة، فإن في هذه الأوقات والقيام فيها بعبادة الله بالصلاة والذكر والدعاء نوعاً ممتازاً من العزلة والخلوة المشروعة، وهي على قصرها ذات أثر بليغ جداً.

الثاني: إذا احتاج الداعي إلى عزلة أكثر مما ورد في النوع الأول، كأن يخلو في بيته أياماً لما يحسه من حاجة الى هذه الخلوة للراحة والاستجمام ومراجعة الحساب مع نفسه، وتدارك ما فاته، فلا بأس في ذلك بشرط أن يكون قصده من ذلك اعداد نفسه وتهيئتها الى المزيد من الدعوة الى الله، فيكون مثله في هذه الحالة مثل المجاهد الذي يتحول عن ميدان القتال ليشحذ سيفه أو يعلف فرسه أو يصلح رمحه أو يداوي جرحه وقلبه معلق بالجهاد ونيته الرجوع إليه من قريب فهو في جهاد في الحالتين، والاعمال بالنيات والله المستعان.

هذا وإن للداعي عزلة أخرى من نوع آخر، وهي غياب فكره عن الحاضرين مع بقاء جسمه معهم، وهذه العزلة يحتاجها كلما وجد نفسه مضطراً بين قوم سوء ومجلس غيبة وكلام باطل لا يستطيع الخروج منه، ولا تحويل مجراه الخبيث، فيغيب عنه بروحه ويبقى جسده معهم.

وهناك عزلة ثالثة للداعي، وهي مفارقة الكفرة والتحول عنهم إلى غيرهم إذا بدا له أن بذل الجهد معهم عبث أو لا يجدي أو أن احتمال إجابتهم في الوقت

الحاضر احتمال ضعيف أو أن أذاهم لا يطاق فيتحول عنهم إلى غيرهم ويوجه جهده إليهم فيدعوهم إلى الله تعالى لأن جهد الداعي محدود ووقته محدود فاذا لم يجد الإجابة عند قوم تحول الى غيرهم واعتزل الأولين بل وله أن يعتزل الجميع الى حين وقد يستأنس لهذا بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام {وأعتزلكم وما تدعون من دون الله}. وبقوله تعالى حكاية عن نبيه موسى عليه السلام {وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون} وقوله تعالى عن أهل الكهف: {وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً} والله سبحانه وتعالى أعلم.

المبحث الثامن: المَدْعُو

التعريف بالمدعو وَمَالَهُ وما عَلَيه

من هو المدعو؟

الإنسان أي إنسان كان، هو المدعو الى الله تعالى، لأن الإسلام رسالة الله الخالدة بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم الى الناس أجمعين قال تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً} وقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا

كافة للناس بشيراً ونذيراً} وهذا العموم بالنسبة للمدعوين لا يستثنى منه أي انسان مخاطب بالإسلام ومكلف بقبوله والاذعان له وهو البالغ العاقل مهما كان جنسه ونوعه ولونه ومهنته واقليمه وكونه ذكراً أو أنثى الى غير ذلك من الفروق بين البشر. ولذلك كان ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم العربي كأبي بكر، والحبشي كبلال، والرومي كصهيب، والفارسي كسلمان، والمرأة كخديجة، والصبي كعلي بن أبي طالب، والغني كعثمان بن عفان، والفقير كعمار.

وعلى هذا فالدعوة إلى الله عامة لجميع البشر وليست خاصة بجنس دون جنس، أو طبقة دون طبقة، أو فئة دون فئة، ولهذا يخاطب القرآن البشر بصفتهم الآدمية قال تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم} {يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد} وعلى الداعي أن يفقه عموم دعوته الى الله ويحرص على إيصالها لكل إنسان يستطيع الوصول اليه وهذا لا يناقض ابتداء الداعي بالأقربين إليه فيدعوهم قبل البعيدين لأن لكل إنسان الحق في إيصال الدعوة إليه، فليس الأبعد بأولى من الأقرب، بل الأقرب أولى لسهولة تبليغه واحتمال صيرورته داعياً أيضاً بعد إسلامه فيسهل إيصال الدعوة الى البعيدين، ولهذا

جاء في القرآن الكريم: {وأنذر عشيرتك الأقربين} وهذا وإن كان خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه يشمل معناه الدعاة الى الله فعليهم أن ينذروا الأقربين إليهم مبتدئين بأفراد أسرهم وأقاربهم ومن يعرفونهم بل ان دعوة الأهل وأفراد الأسرة أوجب من غيرهم لأن الداعي ان كان رب أسرة فإنه مسؤول عنهم "كلكم راع ومسؤول عن رعيته" وهذه المسؤولية تشمل القيام بشؤونهم المادية من توفير الطعام والشراب والسكن ونحو ذلك من الأشياء المادية كما تشمل شؤونهم الدينية بتعليمهم ما يلزمهم من أمور الإسلام ودعوتهم اليه. قال تعالى مثنياً على أحد رسله الكرام: {وكان يأمر أهله بالصلاة}. وقال تعالى: {قوا أنفسكم وأهليكم ناراً} ووقايتهم من النار تكون بدعوتهم الى الإسلام وطاعة أوامر الله وترك نواهيه.

حقوق المدعو

ومن حق المدعو أن يؤتى ويدعى، أي أن الداعي يأتيه ويدعوه الى الله تعالى ولا يجلس الداعي في بيته وينتظر مجيء الناس اليه وهكذا كان يفعل الداعي الأول نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، يأتي مجالس قريش ويدعوهم ويخرج الى القبائل في منازلها في موسم قدومها مكة ويدعوهم ويذهب الى ملاقاة من

يقدم الى مكة يدعوه. فقد جاء في سيرة ابن هشام: "فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه في المواسم، إذا كانت، على قبائل العرب يدعوهم الى الله، ويخبرهم انه نبي مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به فيقف على منازل القبائل من العرب فيقول: "يا بني فلان اني رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه هذه الأنداد وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به... وكان صلى الله عليه وسلم لا يسمع بقادم الى مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه الى الله وعرض عليه ما عنده[. ولم يكتف صلى الله عليه وسلم بأهل مكة ومن كان يأتيها وإنما يذهب الى خارجها ذهب الى الطائف يدعو أهلها (فلما انتهى الى الطائف عمد الى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم فجلس اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم الى الله..).

٥٨٩- ونسأل هنا لماذا كان المدعو يؤتى ويدعى ولا يأتي؟ والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: إن وظيفة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم التبليغ قال تعالى: {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك} وقال تعالى: {وما على الرسول إلا البلاغ المبين}. وهذا التبليغ قد يستلزم نقلة الرسول صلى الله عليه وسلم الى مكان من يراد تبليغه لاحتمال عدم وصول خبر الدعوة اليه أو أنها وصلته بصورة غير صحيحة، أو وصلته بصورة صحيحة ولكن لم ينهض فيأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمع منه فلأجل هذه الاحتمالات كان الرسول عليه الصلاة والسلام يأتي الى أماكن الناس لتبليغهم الدعوة الى الله.

الوجه الثاني: شفقته صلى الله عليه وسلم على عباد الله وحرصه على هدايتهم وتخليصهم من الكفر كل ذلك كان يحمله على الذهاب اليهم في أماكنهم ومنازلهم ويبلغهم الدعوة الى الله.

الوجه الثالث: إن البعيد عن الإسلام قلبه مريض، ومرضى القلوب لا يعرفون مرضهم ولا يحسون به فلا يشعرون بالحاجة الى علاجه فلا بد من اخبارهم بمرضهم من قبل الرسل الكرام ولا ينتظرون مجيئهم اليهم ليخبروهم بل يذهبون اليهم ويخبرونهم بالمرض والعلاج لأن من أعراض مرضهم إعراضهم عن الدعوة والمجيء الى صاحبها.

٥٩٠- وعلى الداعي المسلم أن يقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم فينتقل الى الناس في أماكنهم ومجالسهم وقراهم ويبلغهم الإسلام ويدعوهم الى الله تعالى ويا حبذا لو توزع الدعاة الى القرى والمحلات وتفرغ كل واحد منهم الى جهة، وفي هذا المعنى يقول الإمام الغزالي "يتكفل كل عالم باقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلّم أهله دينهم، وتمييز ما يضرهم عما ينفعهم، وما يشقيهم عما يسعدهم، ولا ينبغي أن يصبر الى أن يسأل عنه، بل ينبغي أن يتصدى الى دعوة الناس الى نفسه فإنهم ورثة الأنبياء والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحداً واحداً فيرشدونهم وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيها متديناً يعلم الناس دينهم فان الخلق لا يولدون إلا جهالا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع".

واجبات المدعو

وإذا كان من حق المدعو أن يؤتى ويدعى، وأن لا يستهان به ولا يستصغر شأنه، فإن عليه أن يستجيب إذا ما دعي إلى الله، لأنه يُدعى إلى الخير والحق

ويستجيب لنداء ربه جل جلاله. ومن بيان الواقع الذي قد يستفيد منه الداعي، ويطرد عنه اليأس ويبقي أمامه الأمل، نقول: إن الناس ليسوا سواء في الاستجابة الى الحق وقبول الدعوة، فمنهم السريع جدا في الاستجابة ومنهم البطيء جداً ومنهم بين هذين الحدين في درجات كثيرة جداً تستعصي على العدّ والإحصاء. فمن الناس من يؤمن حالا وبدون تردد أو تلكؤ أو تعثر حتى كأنه ينتظر سماع الدعوة ليؤمن، ومن أمثلة ذلك إيمان أبي بكر الصديق وإيمان السحرة بموسى. أما إيمان أبي بكر فقد أخبر عنه رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم إذ قال "ما دعوت أحداً الى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد الا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم – أي ما تلبث – حين ذكرته له وما تردد فيه"[4] أما إيمان السحرة فأعني بهم السحرة الذين جاء بهم فرعون مصر لابطال معجزة موسى عليه السلام. وأخبرنا الله تعالى بقصتهم وإيمانهم، قال تعالى: {فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فألقي السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، قال آمنتم له قبل أن آذن لكم، انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون، إنا نطمع أن

يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين} فأولئك السحرة جاؤوا لينصروا باطل فرعون وكفره ويقاوموا دعوة موسى نبي الله، ولكن ما ان رأوا المعجزة وعلموا أنها ليست من السحر الذي تعلموه، وإنما هي من عند الله ودليل صدق نبيه الكريم موسى عليه السلام، أقول ما ان رأو ذلك حتى آمنوا حالا وأعلنوا إيمانهم صراحة بما يدل على عظم الإيمان وقوة نوره الذي دخل قلوبهم وبدد كل باطل فيها حتى هتفت ألسنتهم وقالوا: {آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون} ولما هددهم اللعين بما هددهم به قالوا {لا ضير} أي لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا فان عذابك ساعة فنصبر لها ثم نلقى الله ربنا مؤمنين ونحن نرجو أن يغفر خطايانا السابقة فإننا بادرنا إلى الإيمان عند ظهور معجزة موسى عليه السلام.

هذان مثلان للاستجابة السريعة لدعوة الله تكون عند بعض الناس أما الأمثلة على الاستجابة البطيئة فهي كثيرة نكتفي منها بما قصه الله علينا من أخبار قوم نوح فانه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ومع هذا لم يؤمن له إلا القليل كما جاء في القرآن الكريم. وأبو سفيان والطلقاء لم يؤمنوا بالإسلام ونبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم إلا بعد فتح مكة وبعد عداوة شديدة ومحاربة دامت

عشرين سنة. وهناك من لا يستجيب الى دعوة الله ويموت وهو كافر، نعوذ بالله من الخذلان.

ومن واجبات المدعو بعد أن هداه الله الى الإسلام أن يقوم بحق الإسلام فيقيم أمور حياته وسلوكه على مناهج الإسلام ويعبد الله على النحو الذي أمر به وبيّنه في قرآنه وعلى لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم حتى لا يكون في إسلامه شوب نفاق، يقول: إنه من المسلمين، ولكنه لا يؤدي حقوق الإسلام.

المبحث التاسع

مَصادر أساليب الدّعوة ووَسائِلها ومدى الحاجة إليها

مصادر أساليب الدعوة ووسائلها هي: القرآن الكريم، السنة النبوية المطهرة، سيرة السلف الصالح، استنباطات الفقهاء، التجارب، ونتكلم فيما يلي بشيء من الايجاز عن كل مصدر للتعريف به.

أولاً: القرآن الكريم

في القرآن الكريم آيات كثيرة تتعلق بأخبار الرسل الكرام وما جرى لهم مع أقوامهم.

وما خاطب الله تعالى به خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من أمور الدعوة إليه. وهذه الآيات الكريمة يستفاد منها أصول أساليب الدعوة ووسائلها، التي يجب أن يفقهها المسلم كما يتفقه أمور الدين الاخرى، لأن الله جل جلاله ما قصها علينا وأخبرنا بها الا لنستفيد منها ونتزود من معانيها ما يعيننا على الدعوة الى الله تعالى، ونلتزم بنهجها. قال ربنا تبارك وتعالى: {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} سورة هود الآية: ١٢٠. قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "كل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل اعداءه الكافرين. كل هذا مما نثبت به فؤادك يا محمد أي قلبك ليكون لك ممن مضى من اخوانك المرسلين أسوة".

ولا شك أن المسلمين يقتدون برسولهم صلى الله عليه وسلم وفيما كان يتأسى به من سيرة المرسلين في أمور الدعوة الى الله. قال تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب. ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} سورة يوسف الآية: ١١١. ففي قصص

السابقين من أمم الأرض وما جرى عليهم وما جرى لأنبيائهم معهم عبرة وموعظة لأصحاب العقول السليمة وهداية ورحمة للمؤمنين بالله ورسوله فهم الذين يعتبرون بما قصه الله عن الماضين ويتعظون به لأن الإيمان قد فتح قلوبهم للحق وأرهف حسهم لمواضع العبرة ومعاني الموعظة. وقال تعالى: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده} سورة الأنعام الآية: ٩٠ فهذه الآية الكريمة تشير الى لزوم الاقتداء بنهج رسل الله في الدعوة إليه.

ثانياً: السنة النبوية :

وفي السنة النبوية أحاديث كثيرة تتعلق بأمور الدعوة ووسائلها. كما أن السيرة النبوية المطهرة وما جرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة والمدينة، وكيفية معالجته للأحداث والظروف التي واجهته، كل ذلك يعطينا مادة غزيرة جداً في أساليب الدعوة ووسائلها، لأن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مرّ بمختلف الظروف والأحوال التي يمكن أن يمر بها الداعي في كل زمان ومكان، فما من حالة يكون فيها الداعي، أو أحداث تواجهه، الا ويوجد نفسها أو مثلها أو شبهها أو قريب منها في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، فيستفيد الداعي منها الحل الصحيح والموقف السليم الذي يجب أن يقفه إذا ما فقه

معاني السيرة النبوية، وقد يكون من حكمة الله ولطيف لطف الله أن جعل رسوله الكريم يمر بما مر به من ظروف وأحوال حتى يعرف الدعاة المسلمون كيف يتصرفون وكيف يسلكون في أمور الدعوة في مختلف الظروف اقتداء بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالسيرة النبوية والتوجيهات النبوية الكريمة تطبيقات عملية لما أمر الله به رسوله في أمور الدعوة وتبليغ الرسالة، وما ألهم رسوله في هذا المجال، فلا يجوز للداعي أن يغفل عن سيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: سيرة السلف الصالح

وفي سيرة سلفنا الصالح من الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان، سوابق مهمة في أمور الدعوة يستفيد منها الدعاة إلى الله، لأن السلف الصالح كانوا أعلم من غيرهم بمراد الشارع وفقه الدعوة الى الله، وما زال أهل العلم يستدلون بسيرتهم.

رابعاً: استنباطات الفقهاء

الفقهاء يعنون باستنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها الشرعية، ومن هذه الأحكام ما يتعلق بأمور الدعوة الى الله، مثل أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد والحسبة، وقد افردوا لهذه الأحكام أبواباً خاصة في كتبهم الفقهية. وما قرروه من اجتهادات في أمور الدعوة ومجالها، حكمه حكم اجتهاداتهم الأخرى، التي يجب اتباعها أو يندب لأن الوسائل والأساليب في الدعوة من أمور الدين مثل مسائل العبادات والمعاملات.

خامساً: التجارب

التجربة معلم جيد للإنسان لا سيما لمن يعمل مع الناس، وللداعي تجارب كثيرة في مجال الدعوة هي حصيلة عمله المباشر مع الناس ومباشرته للوسائل فعلا في ضوء ما فهمه من المصادر السابقة، لأن التطبيق قد يظهر له وجه خطئه فيتجنبه في المستقبل، وقد يكون الثمن غالياً ولكن ما يتعلمه من التجارب أغلى من الثمن المدفوع إذا انتفع من التجارب حقاً، وهذا هو المأمول من المؤمن فان المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين... وكما أن الداعي يستفيد من تجاربه الخاصة، يستفيد أيضاً من تجارب الآخرين في مجال الوسائل والأساليب فان الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من أي وعاء خرجت...

ضرورة الاستمساك بالنهج الصحيح في الوسائل والأساليب

النهج الصحيح في الوسائل والأساليب هو المستقى من المصادر التي بيناها، والاستمساك بهذا النهج ضروري لكل داع ولازم له وواجب عليه لأن الإسلام يقضي به، والواجب على المسلم ان يتمسك بما يقضي به الدين، كما أن التزام هذا النهج الصحيح يقرب من الغاية ويوصل الى المراد ولو بعد حين بخلاف غيره من المناهج فانه خطأ ويبعد عن الغاية ولا يوصل الى المطلوب. ثم ان المطلوب من الداعي ان يحرص على طاعة الله واتباع الصواب وعدم الوقوع في الخطأ او في العصيان، وهذا المطلوب من الداعي إنما يكون بالالتزام بالنهج الصحيح الذي جاءت به المصادر. فإذا ما قام الداعي بما هو مطلوب منه لم يكن مسؤولا عن نتيجة عمله من حيث بلوغ الغاية والوصول الى المراد لأن الله تعالى يقول: {فاتقوا الله ما استطعتم} والحساب إنما يكون على مشروعية عمل الانسان وهل أدى كل ما عليه من واجب؟ وإذا تبين هذا الأمر ووعاه الداعي وفقهه لم يكن له أن يخرج على النهج الصحيح بحجة صعوبته أو طوله أوعدم قبول الناس له، أو تعجلا من الداعي لبلوغ الغاية أو انسياقاً منه وراء عاطفة نبيلة دينية حسنة ورغبة صادقة في العمل والجهاد والشهادة في

سبيل الله، لأن الخطأ لا يصير صواباً بالنيات الحسنة والعواطف النبيلة، وان الوصول إلى المقصود لا يكون بالسير على ما لا يؤدي إليه وان كان السائر جد حريص على الوصول. ويكفي للتدليل على ما أقول أن أذكر أن أحكام الشريعة ما نزلت دفعة واحدة، وان الدعوة الإسلامية ما سارت وراء رغبات المتحمسين وعواطف الصادقين المتعجلين. فالقتال ما شرع في مكة، وكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم للمتعجلين: أن اصبروا. وصلح الحديبية لم تتسع له صدور كثير من المسلمين بالرغم من صدقهم وعمق إيمانهم واستعدادهم للقتال وللاستشهاد، ولكن اتسع له صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم. لأن المسألة ليست مسألة استعداد للموت والصدق في هذا الاستعداد وإنما المسألة هي لزوم السير على النهج الصحيح، فهو وحده الموصل إلى المراد وبلوغ الغاية على الوجه المطلوب. ولهذا نزل القرآن واصفاً ذلك الصلح بالفتح المبين. فعلى الداعي ان لا يتأثر بالعواطف والقصود الطيبة والحماس لخدمة الإسلام عند تعين الوسيلة والأسلوب، وليدع النظر السديد يعين الوسائل والأساليب في ضوء ما جاء في المصادر التي ذكرناها. إن الحماس والعاطفة والرغبة في العمل يجب أن يوجه ذلك كله لتحقيق وتنفيذ الأسلوب الصحيح

والوسيلة الصحيحة بعد تقريرهما، لا أن يوجه ذلك للتشكيك في الأسلوب الصحيح والتجديف بعيداً عن الوسائل الصحيحة، والجدل العقيم.

نتائج الخروج عن النهج الصحيح

والخروج عن النهج الصحيح في الأسلوب والوسيلة يؤدي إلى الفشل وعدم بلوغ الغاية وان ظن الخارج أنه قارب أن يصلها وحتى لو وصلها فعلاً، فإنه سرعان ما يدفع عنها ويرمى بعيداً عنها. وفضلاً عن ذلك فان الخروج عن النهج الصحيح يؤدي غالباً إلى لحوق الأذى بالعاملين وضياع الجهود بلا طائل كالذي يقيم البناء على غير أسس سليمة أو بمواد غير صالحة. فان بناءه إلى الزوال مع احتمال انهدامه على ساكنيه. إن هذه النتائج تقع حتماً وإن كان الداعي حسن النية والقصد، لأن النتائج في الدنيا تترتب على أسبابها ومقدماتها بغض النظر عن نيات أصحابها.. وعلى سبيل التمثيل او التدليل على ما نقول، إن من نهج الدعوة الصحيح حسن الخلق والترفق، فان عدم الداعي ذلك بأن كان فظاً غليظ القلب كان سبباً لانصراف الناس عنه وإن كان محقاً في دعوته مخلصاً في عمله، إذ ليس هو بأحسن حالاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي خاطبه ربه بقوله: {ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من

حولك}. وأخيراً فان الخروج على النهج الصحيح قد يكون من المعاصي التي يقع فيها الداعي، لأن النهج الصحيح في الدعوة من الدين ومخالفة أحكام الدين في أمور الدعوة الى الله معصية يسأل عنها المسلم.

صعوبة الالتزام بالنهج الصحيح :

والحقيقة أن الالتزام بالنهج الصحيح ليس بالأمر اليسير، لأنه يقتضي أن يحيط الداعي بمعاني النهج الصحيح وحضورها في ذهنه بحيث تصدر أفعاله بموجبها بسهولة ويسر ثم عليه أن يطبق ما فهمه من هذه المعاني على الجزئيات التي يباشرها أو يواجهها وهي كثيرة جداً ويصعب عدها وحصرها، وكثيراً ما تختلط هذه الجزئيات ببعضها وتدق الفروق فيما بينها. وكثيراً ما ينسى الداعي معاني المنهج الصحيح، وكثيراً أيضاً ما يصعب عليه استنباط الحلول الجديدة من هذه المعاني الكثيرة، إن مثل الداعي في هذه الحالة – حالة التطبيق – مثل القائد العسكري فقد يستوعب أساليب الحرب والقتال والخطط العسكرية وقواعدها استيعاباً جيداً جداً ولكن هذا لا يكفيه عند التطبيق إذ لا بد له من كفاءة وقدرة على حسن الاستفادة مما تعلمه لوضع الخطة الملائمة والأسلوب الصحيح للحالة التي يواجهها في ضوء ما تعلمه. وصعوبة التطبيق

بالنسبة للداعي أشد بكثير مما هي بالنسبة للقائد العسكري، لأن القائد يجد بين يديه جنوداً مطيعين ينفذون ما يأمرهم به القائد، أما الداعي فهو يواجه أناساً جاهلين بربهم متمردين عليه نافرين من الحق مقبلين على الدنيا معادين للداعي أوعلى الأقل لا يهتمون بما يدعوهم إليه من الخير ولا يحسون بحاجة إليه. أضف إلى ذلك أن أحوال الناس وأهواءهم مختلفة متضاربة وأمراضهم كثيرة متنوعة وكل ذلك يجعل مهمة الداعي في تطبيق ما تعلمه صعبة وليست يسيرة. ومع هذا كله فإنه من الممكن تذليل هذه الصعوبة جهد الإمكان وهذا ما نبينه في الفقرة التالية:

تيسير الالتزام بالنهج الصحيح

والذي يسهل الالتزام بالنهج الصحيح ويعين عليه أمور، منها:

أولاً: الفهم الدقيق الجيد لمعاني النهج الصحيح بطول التأمل وتكرار هذه المعاني التي جاءت في المصادر التي ذكرناها، بحيث تصبح كأنها تجري في دمه وحاضرة في ذهنه، ولهذا لا يجوز للداعي أن يمل من ترداد وإعادة قراءة ما ورد في مصادر الدعوة مع التأمل الطويل عند القراءة.

ثانياً: تقوى الله، فان تقوى الله تنور قلب المسلم وتقوي فيه قوة الادراك والرؤية فيبصر الحق واضحاً جلياً ويعرف الوسائل والاساليب الصحيحة المناسبة لما يمر به من ظروف وأحوال وأشخاص، والتي قد تشتبه بغيرها فيشتبه عليه الصحيح من الوسائل والأساليب، لأنه لا يكفي، كما قلنا ان يعرف الوسائل والأساليب بصورة عامة أو بتفصيل وإنما يجب ان يعرف ما يجب تطبيقه منها بالنسبة لهذا الشخص أو بالنسبة لهذه الحالة او الظرف. وكثيراً ما تتعارض مبررات تطبيق وسيلة معينة تعارض معاني هذه الحالة المعينة أو الظرف المعين، فيحتاج الداعي الى بصيرة نافذة تدرك الوسيلة المناسبة أو تستخرجها من مجموع الوسائل الصحيحة عن طريق المزج او الاستنباط او القياس قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم} سورة الانفال الآية: ٢٩ وقد جاء في تفسير هذه الآية: "يجعل لكم فرقاناً أي فصلاً بين الحق والباطل، فان من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة" وقال تعالى: {واتقوا الله ويعلمكم الله} قال ابن كثير في تفسيره: ويعلمكم الله كقوله: {يا أيها الذين آمنوا

ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً} يريد رحمة الله بقوله هذا إن معناها مثل معنى هذه الآية

ثالثاً: الالتجاء الدائم الى الله تعالى والانطراح بين يديه والتوسل إليه ليعلمه ويفهمه. لقد كان الإمام ابن تيمية يخرج الى الصحراء ويضع خده على التراب ويقول "يا معلم ابراهيم علمني" يكررها مراراً ويكرر هذه الحالة مراراً كما ذكر تلميذه ابن القيم.

رابعاً: تطهير قلبه من جراثيم الرياء تطهيراً كاملاً. بتجريد الإخلاص لله رب العالمين بحيث لا يبقى فيه أي تلفت الى الناس وطلب السمعة عندهم أو طلب مرضاتهم على حساب النهج الصحيح للدعوة. إن الداعي قد ينحرف عن النهج الصحيح لما يسمعه من ضجيج الناس ومن صياحهم او من رغبة أصحابه في التساهل في معاني النهج الصحيح. والذي يعينه على الثبات والاستقامة وعدم الخروج على النهج الصحيح اخلاصه الكامل التام الذي يجعله لا يلتفت إلى أي داع من دواعي الخروج. إن تجريد الإخلاص صعب جداً لأن جراثيم الرياء خفية ودقيقة قد يحملها الداعي ولا يحس بها كما يحمل الصحيح جراثيم المرض

ولا يحس بها، ولهذا يمكن أن تؤثر فيه أو تضعف مقاومته لدواعي الخروج عن النهج الصحيح